يوكيو ميشيما

اعترافات قناع



كتاب الهلال

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب : تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
KITAB AL-HILAL
No-520-AP-1994
العدد ٥٢٠ - شوال - ابريل ١٩٩٤
FAX 3625469 فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٣٠٠ قرش

سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٦٦٠٠ ليرة - الأردن ٢٤٠٠ فلس - الكويت ١٥٠٠ فلس - السعودية ١٢ ريالا - تونس ٢ دينار - المغرب ٢٥ درهماً - البحرين ١,٢٠٠ - مسقط ١,٢٠٠ ريال -

إهداء ٢٠١٠

المرحوم / محمد بن علي الدعفس
المملكة العربية السعودية

يوكيو ميشيما

اعتـــرافـــات قنــــاع

ترجمة

كامل يوسف حسين

دار الهــــلال

الغلاف للفنان :
حلمى التونى

مقدمة المترجم

هذا كتاب وحشى .

إن ميشيما يتدافع كقطع الليل ، يتدفق مثل قافلة مسرعة ، فى الطريق من الجحيم إلى الجحيم ، وأولئك الذين تتحصل فكرتهم عن مطالعة أدب الاعترافات فى أنها تشبه ، من قريب أو بعيد ، تناول الحلوى عقب طعام العشاء عليهم أن يسارعوا بتنحية كتابه هذا ، وإلا فإن عسر الهضم فى إنتظارهم !

الصفحات الناصعة ، الماثلة بين يدى القارىء ، ليست إلا جمرات تفحمت . السطور الرشيقة ملكات ، فى لحظة الانتحار . والغلاف يضم شرائح من انتفاء الأمل ، وفى الوقت نفسه من رفض الاشفاق على عالم ينهار ، دون أن تتكامل مقومات عالم آخر ينهض .

إنه كتاب يتصدى لليأس والموت والدمار ، من خلال محاولة اجتراح فهم أفضل للحياة ، ولم يكن من قبيل المصادفة رفض الناشرين الأمريكيين لسنوات طوال إصداره ، وإصرار الناشرين

الإنجليز والفرنسيين على تصدير طبعاتهم بكلمة تحذر من أثره الكلي المعتم ، القابض ، والغارق فى التعاسة والرعب واليأس .

فى ٢٥ نوفمبر ١٩٧٠ حزم كيميثاكى هيراوكا ، الشهير بيوكيو ميشيما أشهر أدباء اليابان فى القرن العشرين ، كليتيه بقطعة من النسيج القطنى ، وانتضى سيفه التقليدى القصير ، ودون تردد أو وهن أغمده فى أحشائه ، منتزعا إياها فى إنتحار علنى . الكثيرون تساءلوا عما إذا لم يكن الرجل – فى تضحيته بحياته ليلفت انتباه مواطنيه إلى عمق خسارتهم بإهدارهم لتراث اليابان التقليدى – يحقق هاجسا راوده طوال عمره ، بأكثر مما يضحى بمبادىء آمن بها طويلا وعميقا . الكثيرون قالوا إنه – على أية حال – ماكان ليستطيع تجاوز نفسه ، وكتابة شىء يفوق رباعيته «بحر الخصب» ، التى وصل فيها إلى أعلى قممه ، حتى ولو عاش ربع قرن آخر . الكثيرون – أيضا – تساءلوا : ترى أهذه هى النهاية أم أنها البوابة حقا ؟ .

فى ١٤ يناير ١٩٢٥ ولد ميشيما ، فى طوكيو ، إبناً لعائلة تعبر مسيرتها عن الحراك الاجتماعى النسبى ، فى مجتمع يفتقر بصرامة للمرونة الاجتماعية ، كان أبوه أحد العاملين بالدولة وجده هو الحاكم العام السابق لمقاطعة كارافوتو . ورغم اعتزاز ميشيما بجده ذاك ، فإنه كان يلتزم الصمت بالنسبة للأصول الفلاحية التى

إنحدر منها ، ويؤثر الحديث عن جدته ، التى كانت تنتمى إلى طبقة الساموراى ، وربما كانت غرابة أطوار تلك الجدة ونوباتها العصبية هى السبب فى تزويجها من رجل يتدنى عنها فى السلم الاجتماعى.

بضغط من هذه الجدة ، ألحق ميشيما - «الجاكوسهوين» أو «معهد الأعيان» ، الذى كان الطلاب الذين لاينحدرون من أصول نبيلة يعاملون فيه معاملة الغرباء ، وفى رحابه عرف آداب اليابان التقليدية ، وتعلق بها إلى حدّ الافتتان ، الذى رافقه طوال عمره .

فى ١٩٤١ ، أى فى السادسة عشرة من عمره ، كتب أول عمل أدبى مهم ، وهو «هانازا كارى نومورى» أو «غابة مزهرة» ، ويدور موضوعه الرئيسى حول التواصل بين الأجيال ، فقد كانت قناعة ميشيما قوية بأن لنا عددا هائلا من الأجداد ، يرقدون فى أعماقنا أحياناً ، كحنين رائع ، ولكنهم قد يبقون على بعد مؤلم منا ، ويحافظون على بعدهم هذا بصرامة . يقول :

«يأتى الينا أجدادنا بطرق غريبة ، يشك الناس فى ذلك ، لكنه حقيقى» . ومن الجلى أن هذه الموضوعة سائدة فى الأدب العالمى ، وقد عبر عنها الكثيرون من الكتاب المعروفين ، والذين طالعوا بحب وتعاطف مذكرات العملاق اليونانى نيكوس

كازانتزاكيس سيجدون هذه الموضوعة التى فصلت فى صدر الفصول الأولى من المذكرات قادرة على العودة بحيوية وتألق ، لكنها عند ميشيما ترتفع إلى مستوى المتغير الأصيل ، الذى يؤثر فى كل ماعداه .

فى أكتوبر ١٩٤٤ ظهرت «غابة مزهرة» فى مجلد صغير ، مع مجموعة من القصص القصيرة ، ربما يرجع ما لاقته من إقبال إلى رغبة الجمهور اليابانى فى مطالعة أعمال لا تتناول الحرب ، بأكثر مما يرجع إلى جاذبية تألق ميشيما اللفظى فى كتابتها .

لم تظهر رواية ميشيما الكبرى الأولى إلا فى عام ١٩٤٩ بعنوان «ثوزوكى» أو «السارقون» ، وتدور حول نشوة الموت البالغة الحضور التى يحسها فتى وفتاة من أصول أرستقراطية ، فيقرران الزواج ، لينتحرا معاً فى ليلة زفافهما .

فى العام التالى ، ظهر الكتاب الماثل بين أيدينا هنا ، بعنوان «كامن نوكوكو هاكو» أو «اعترافات قناع» ، وإذا كانت رباعية «بحر الخصب» تعد أرقى القمم التى وصل إليها عالم ميشيما الأدبى ، فإن الاعترافات تقدم ، فى الحقيقة ، المفاتيح التى يستحيل دونها فهم أسرار ومغاليق هذا العالم .

لكن مأساة هذا العمل ، أو بالأحرى مأساتنا معه – وربما

كان هذا أيضا أعظم ما فيه – هو قابليته الفذة للتفسير على أكثر من صعيد واحد ، وعلى عمق كبير داخل كل مستوى على حدة .

كان ميشيما نفسه ينظر إلى هذا العمل باعتباره «تدريباً اسبرطياً للانضباط الذاتى » ، إنه هنا يتحدث فى تدفق وعفوية ، متخلصا من ولعه بالتراكيب الأدبية المغرقة فى الخيال والاستعارات المحوّمة ، ثم أنه يجالد الحقيقة عارية لأنها – ببساطة – الحقيقة ، ولا مهرب منها ، والمنهاج الأفضل هو فهمها ومواجهتها ، وهذا هو ما تضمه الاعترافات بين دفتيها .

والكثيرون من النقاد يرون فى «الاعترافات» شكلاً شديد الخصوصية من أدب الاعترافات ، فهم ينظرون إليه باعتباره تقليداً ساخراً للاعتراف ، ويعدونه الكتاب الأكثر تعبيرا عن ميشيما، لا لأنه صنع شهرته المدوية ، أو لأنه قمة شامخة فى أعماله ، التى تبلغ حوالى ١٠٠ عمل ، يضمها حوالى ٤٠ مجلدا ، وإنما لأنه الكتاب الأكثر إيغالاً فى فهم العالم الداخلى لمؤلفه . وإذا قبلنا تفسير «الاعترافات» على هذا المستوى ، فإن هذا الكتاب يجعل اعترافات أندريه جيد ، التى صدمت العالم لدى صدورها ، تبدو تأملات تلميذ برىء فى سيرته الذاتية ، وللذين قد تصدمهم صراحة ميشيما الدامية ربما يصح أن يقال أن أندريه جيد هو نفسه الذى قال فى دراسة له عن دستويفسكى – الذى صدّر

ميشيما اعترافاته بمقتطف مطول من أشهر رواياته - قال جيد : «إن المشاعر الجميلة تفرز فناً رديئا ودون مساعدة من الشيطان لن يتم إبداع الفن » .

وهناك فريق من الدارسين يميلون إلى تصور أن البطل الحقيقي للاعترافات هو يابان مابعد الحرب نفسها ، اليابان في عجزها عن الانفصال عن ماضيها ، ولكن في الوقت نفسه في افتقارها العنين للقدرة على التواصل مع المستقبل .

وثمة من يميل إلى النظر للاعترافات باعتبار أنها محاولة لتفسير الكل من خلال الجزء ، ورحلة تستهدف التوصل إلى تفسير كلي للوجود ، من خلال دراسة العلاقة بين البطل وقدره ، وتحديد هامش الحركة الانسانية الذي يتيحه هذا القدر للبطل ، في حين يصادر شريحة ظالمة من وجوده . ويشير المتحمسون لهذا الفهم إلى أنه في هذه الفترة بشكل خاص بدأ ميشيما يهتم بتعاليم «الزن» ، وبمجمل التأملات الفلسفية التي قدر لها أن تلقى أرقى تعبير عنها في الرباعية .

ومن المحقق أن عملاً يقبل التفسير على مثل هذه الجبهة العريضة ، وبمثل هذا العمق ، جدير بمزيد من الاهتمام ، لكنه لم يكن بالنسبة لميشيما نهاية المسيرة ، وإنما بداية

المرحلة الواثقة الخطى منها .

النجاح المدوى الذى حققته الاعترافات لم يغر ميشيما بالتوقع فى إطارها ، وإنما قدم فى ١٩٥٠ «أى نوكواكى» أو ««عطش الحب» ، وهو عمل أدار فيه ظهره تماما للاعترافات والتجارب الشخصية .

«شيوزى» أو «هدير الأمواج» الصادرة فى ١٩٥٤ كانت ثمرة استلهام مصدر مختلف تماماً ، هو الأساطير اليونانية ، وبرهانا جديدا قدمه ميشيما على أن العمل الكلاسيكى ليس مطرودا – كمن حلت به لعنة – من رحاب الاهتمام الجماهيرى ، وإنما المسألة تتعلق فى الأساس بالأسلوب الذى يتم تبنيه لتقديم هذا العمل .

فى ١٩٥٦ خاض الكاتب اليابانى مغامرة جديدة فى روايته «الخيمة الذهبية» ، التى يرى بعض النقاد أنها أفضل أعماله ، فهو يتعرض لحريق معبد كيوتو الشهير ، وإذا كانت الخاتمة معروفة ، وجانب يعتد به من تيارات الموضوع معروف كذلك ، فقد كان التحدى متمثلا فى إمكانية تقديم عناصر درامية فى ركن من الدنيا تنتفى فيه الامكانية الدرامية ، وقد اجتذب ميشيما هذه العناصر من رحم بحثه عن «السبب» الذى دفع الراهب الذى

أشعل النار إلى اقتراف فعلته تلك .

ولـم تكن المسيرة الأدبية ناعمة دائما بالنسبة لميشيما ، فقد مُنى عملـه الموسـوم «كيـوكـو نواى» أو «دار كيـوكـو» والصـادر فى ١٩٥٩ بفشل مدوٍ ، رغم ما بذله فيه من جهد ، وما سخر له من موهبة .

تلك هى فترة الانهيار عند ميشيما ، غادر مكتبه ، محاولا النسيان فى خضم الحياة الواسع وعلى صدرها العريض ، لعب دورا فى أحد الأفلام ، غنى أغنيات البحر ، أمطر قنوات الإعلام ووسائط الكتابة السريعة الاستهلاكية ، غير أنه ماكان لكاتب فى مثل عبقريته إلا أن يفيق .

فى يناير ١٩٦٠ ، ووفقاً للتقاليد الأدبية اليابانية ، بدأ ينشر حلقات «أوتاج نواتو» أو «بعد الوليمة» . وفى يناير من العام التالى نشر «يوكوكو» أو «وطنية» عن شباب الثلاثينيات وتضحياتهم . وفى ١٩٦٣ أصدر واحداً من أكثر مؤلفاته إتقاناً ، هو «جوجو نوايكو» أو «البحار الذى لفظه البحر» . وفى ١٩٦٥ قدم درة مسرحياته الطويلة «سادو كوشاكوفوجين» أو «السيدة دى ساد» وأقصر هذه المسرحيات فى ١٩٦٧ «واجاتوموهينورا» أو «صديقى هتلر».

لكنه كان منذ سبتمبر ١٩٦٥ ، وحتى اليوم الأخير من حياته ، قد راح يدفع للمطبعة بعملٍ عمره : «هوجونو أوبى» أو «بحر الخصب» .

كان يؤمن بأن هذا العمل هو المحيط الذى يصب فيه نهر عمره ، والمشكاة التى تتوهج منها معارفه جميعا وخبراته ، ككاتب وكإنسان وكمفكر كافة ، وقد لفت انتباه أصدقائه إلى أنه عندما ينتهى من الرباعية لن يبقى له سوى عمل واحد : الانتحار . وفى ذلك اليوم من أخريات نوفمبر ١٩٧٠ كان قد قال كل ماعنده ، فسطر النهاية بسيفه .

فى توازٍ صارم مع هذه المسيرة ، كان تطوره السياسى ، ومن ثم الفكرى ، كان قد انضم فى وقت مبكر من تطوره إلى المجموعة التى تنشر مجلة «كندى بوكاجو» أو «الأدب الحديث» وغالبية أعضائها من الكتاب اليساريين ، لكنه فى الواقع ظل بعيدا عنهم ، وحينما عرض عليه الانتماء إلى الحزب الشيوعى بدا له ذلك شيئا «سخيفاً» وإن كان طريفاً! وكانت المجموعة بالنسبة له أداة تواصل مع العالم – وهو الخجول المنطوى – لكنها أبدا لم تؤثر فى أفكاره السياسية .

ورغم ميوله المحافظة ، التى لم يخفها ،فإنه ظل بعيدا عن

الجماعة الرجعية المشبوهة ، بل كتب عنها بصراحة نادرة فى الرباعية وشارك كتاب اليابان اليساريين فى إلهاب ظهور السياسيين ورجال الأعمال بسياط النقد ، إلا أن الدوافع كانت مختلفة .

حين أعلن إيمانه بأن الامبراطور معصوم من الخطأ ، كان ذلك لأنه يرى فيه الرمز المجرد لليابان ، وفى منتصف الستينيات ، حين شدد على المفاهيم التى عدّها البعض فاشية ، كان جوهر ما يدعو إليه ، فى الحقيقة ، هو المحافظة على التقاليد اليابانية المحضة والروح الكامنة وراء هذه التقاليد .

من المدهش حقاً أن تلك هى الفترة التى شرعت فيها أفكاره السياسية فى الاغراق فى التجريد ، حتى أصبحت إمتدادا لجمالياته ، لكنها الفترة ذاتها التى تدرب فيها سراً مع القوات اليابانية ، وكوّن جيشا خاصاً ، من مائة رجل ، عرف باسم «تات نوكى» أو «جماعة الدرع» وهدفها المعلن خدمة الامبراطور ! .

وأيا كان الأمر ، فليس المقام مقام دفاع عن ميشيما ، أو تهجم عليه ، وإنما المجال لتعرفه ، لفهمه ، ولاستيعاب العالم الذى صدر عنه .

ورغم الأسماء الضخمة التى لمعت فى مرحلة تالية ، مثل

شوساكو إندو وكوبوآبى وكينزابورو وغيرهم ، فإن ميشيما يظل الكاتب اليابانى الأكثر موهبة ، والأعمق عبقرية ، فى النصف الثانى من القرن العشرين . لقد تعذب طويلا وعميقا ، ثم عرف كيف يخلق من عذاباته فناً رفيع المستوى .

ولعل كاتب هذه الكلمات يعد ، الآن وهنا ، أولئك الذين عرفوا العذاب والرحيل بعيداً عنه ، من خلال الخلق ، والابداع ، بأن يرحل معهم فى القريب عبر عالم «بحر الخصب» .

المترجـــــم

... رهيب هو الجمال ومروع ، رهيب لأنه لم يسبر له أبدا غـور ، ولا يمكن أن يعـرف لـه قـط قـرار ، ذلك أن الله لا يطـرح علينا إلا أحجيات ، وفى الجمال يلتقى الشاطئان ، وتتجـاور المتناقضات . لسـت رجـلاً صـقله الفـكر ، أيها الأخ ، لكننى أمعنـت التفكـير فـى هـذا ، حـقا أن هـنـاك أحجيـات بلا انتـهاء! عديدة هـى الأحجيات التى تثقـل كاهـل الانسان على الأرض ، ونحـن نفكر فيها ما وسـعنا التفكير ، فنصـدر عن الماء والجفاف يعلونا . الجمال ! ليس بمقدورى تحمل فكرة أن انسـانا نبيل الفـؤاد شـامخ العقل ينطلق بمثـال العـذراء ، وينتـهى بسـدوم مثالا أعلى ، أما ماهـو أشـد إثارة للفزع فيكمن فـى أن مـن يحـمل مـثال سـدوم فى أعماق روحه لا ينبذ مثـال العذراء ، وربمـا كـان فـى أغـوار فـؤاده يتقـلب علـى جمر الغضـا ، وقـد شـفه الحـنين إلـى المثـال الجميل ، علـى نحـو مـا كـان أيام براءته اليافعة . أجـل ، رحـب هـو فـؤاد الانسـان ، بالـغ الرحـابة حـقا ، وددت لو كـان أكثـر ضـيقا ، الشيـطان وحـده يعـلم مـاذا يصـنع به ! لكـن ماينظر إليه العـقل بحسبانه

مبعثا للشعور بالعار غالبا مايبدو للفؤاد بهى الحسن . أثمة جمال فى سدوم ؟ صدقنى ، إن معظم الرجال يجدون جمالهم فى سدوم ، أتراك إطلعت على هذا السر ؟ الأمر المروع هو أن الجمال ليس رهيبا فحسب ، وإنما هو غامض أيضا ، فالله والشيطان يتجالدان هناك ، وساحة عراكهما هى قلب الانسان . لكن قلب الانسان إنما ينشد الحديث عن وجعه فحسب . أصغ الآن سأحدثك بما يقول ..

دستويفسكى - الأخوة كرامازوف

الفصـــل الأول

لسنوات عديدة ، زعمت أن بمقدورى تذكر أمور تراءت لى وقت مولدى ، وحينما كنت أقول هذا ، كان الكبار يضحكون فى بادىء الأمر ، ولكنهم بعدئذ ، وفى غمار تساؤلهم عما إذا لم يكونوا قد وقعوا ضحية حيلة ما ، ولكنهم كانوا يتطلعون باستياء إلى الوجه الشاحب لذلك الطفل البعيد عن روح الطفولة ، وكان يتصادف فى بعض الأحيان أن نقول ذلك فى حضرة بعض الزوار الذين لو يكونوا على صلة وثيقة بالعائلة . عندئذ كانت جدتى ، فى غمار خوفها من أن تظن البلاهة بى ، تقاطعنى بصوت حاد ، وتبلغنى بأن علىّ أن أمضى إلى مكان آخر وأن ألهو هناك .

كان الكبار عادة يشرعون ، ومازالوا علي ابتسامهم إثر ضحكهم ، فى محاولة افحامى بضرب من التفسير العلمى ، ومجربين اختراع تفسيرات يمكن لعقل الطفل استيعابها ، كانوا دائما يبدءون بالثرثرة فى غير قليل من الحماسة المفعمة بالتظاهر

، فيقولون إن عينى الطفل الوليد لا تكونان مفتوحتين بعد لدى الميلاد ، أو إن الطفل الوليد لا يحتمل أن يكون بمقدوره – حتى وإن كانت عيناه مفتوحتين تماما – أن يرى الأشياء بوضوح يكفى لتذكرها .

«أليس هذا صحيحا» كانوا يقولونها ، وهم يهزون الكتف الصغير للطفل ، الذى ما كان الاقتناع قد سيطر عليه . ولكنهم عندئذ ، على وجه الدقة ، تخطر لهم فكرة أن حيل الطفل كانت على وشك استدراجهم، فحتى إذا كنا نظنه طفلا علينا ألا نتخلى عن حذرنا ، مؤكد أن الوغد الصغير يحاول استدراجنا لنحدثه عن «ذلك» ثم عندئذ ما الذى يحول بينه وبين التساؤل بمزيد من البراءة الطفولية : «من أين جئت ؟ وكيف ولدت ؟» . وفى النهاية كانوا يمعنون النظر فىّ من جديد صامتين ، وقد تجمدت ابتسامة ، واهنة على شفاههم . مفصحين لسبب ما – لم يكن بمقدورى أبدا أن أعرفه – عن أن مشاعرهم قد جرحت بعمق .

لكن مخاوفهم كانت بلا أساس ، فلم تكن لدىّ أدنى رغبة في التساؤل عن «ذلك» ، وحتى لو كنت أرغب فى التساؤل ، فقد كان خوفى من جرح مشاعر الكبار بالغا ، بحيث أن فكرة استخدام الخديعة ما كانت لتطرأ لى على بال قط .

ماكان بوسعى الاعتقاد إلا أننى أتذكر مولدى ، أيا كانت كيفية إيضاحهم للأمر ، وبغض النظر عن إبعادهم لى وهم يضحكون . وربما كان أساس ذاكرتى شيئا سمعته من شخص كان حاضرا فى ذلك الوقت ، أو ربما لم يتجاوز الأمر خيالى التوّاق . وأيا كان الأمر ، فقد كان هناك شيء واحد اقتنعت بأننى رأيته بوضوح بعينى رأسى ، هو حافة الحوض ، الذى تلقيت فيه حمامى الأول . كان حوضا جديدا تماما ، تموج سطحه الخشبى برهافة حريرية غضة . وحينما تطلعت من داخله ، كان شعاع من نور يلطم بقعة واحدة على حافته ، التمع الخشب فى تلك البقعة وحدها ، بدا كأنه صيغ من نضار ، راحت أطراف ألسنة الماء تتراطم متموجة ، كأنها ستلعق البقعة ، لكنها لم تصلها أبدا ، وسواء كان الأمر يرجع إلى الانعكاس ، أو لأن شعاع النور إنساب إلى الحوض كذلك ، فإن الماء تحت تلك النقطة على الحافة راح يلتمع فى رقة ، وبدت موجات رقيقة وهاجة وكأنها ترتطم برءوسها معاً هناك ..

كان أقوى تفنيد لهذه الذكرى هو أننى ولدت لا فى نور النهار ، وإنما فى التاسعة مساء ، وما كان يمكن أن يتدفق شعاع من الشمس وقتها ، ورغم الضيق الذى كان ينتابنى لسماع قولهم : «هكذا إذن ، لابد أنه كان ضوءا كهربيا» كان لايزال بمقدورى أن

أمضى إلى عبث الاعتقاد بأنه حتى وإن كان الوقت منتصف الليل ، فمن المؤكد أن شعاعا من ألق الشمس كان يلطم تلك البقعة الواحدة على الأقل فى الحوض ، وعلى هذا النحو تأرجحت حافة ذلك الحوض ونورها المتقد فى ذاكرتى ، بحسبانها شيئا من المؤكد أنه قد تراءى لى وقت حمامى الأول .

ولدت بعد الزلزال الكبير بعامين . قبل ذلك بعقد من الزمان ، حمل جدى على كاهله عبء آثام أحد مرءوسيه ، واستقال من منصبه كمحافظ بالمستعمرات ، وذلك كنتيجة لفضيحة وقعت آنذاك (لست أتحدث بلطف عن شىء مقيت ، فحتى الآن لم أر مثل هذه الثقة البالغة الحماقة بالبشر التى كان جدى يتمتع بها) . شرعت عائلتى ، عقب ذلك فى التهاوى عبر منحدر بسرعة تمازجها اللامبالاة ، حتى ليمكننى القول بأن أفرادها كانوا يصفرون فى مرح ، وهم يعانون وقر الديون الهائلة ، فحرمانهم حق استرجاع مرهوناتهم ، ثم بيع ضيعة العائلة ، عقب ذلك تفاقمت الصعوبات المالية ، وتعاظم تأجج لهيب الغرور المريض ، مثلما يتفاقم دافع شرير ..

ولدت ، كنتيجة لهذا ، فى حى بعيد عن الفخامة من أحياء مدينة طوكيو ، فى دار عتيقة مؤجرة ، كانت دارا تحمل من الادعاء أكثر مما تعكس من الأصالة ، تقع عند ملتقى شارعين ، ذات

مظهر بالغ الاختلاط ، تولد إحساسا كابيا وقاتما . كانت لها بوابة حديدية فخيمة ، وخديقة عند مدخلها ، وغرفة استقبال ذات طراز غربي ، في ضخامة مدخل كنيسة بالضواحي ، كان هناك طابقان في المنحدر الأعلى وثلاثة طوابق في المنحدر الأسفل ، وغرف عديدة كئيبة وست خادمات . وفي هذه الدار ، التي كانت تقعقع مثل خزانة ملابس عتيقة ، كان عشرة أشخاص ينهضون صباحا ، ويخلدون للنوم مساء ، هم جدي وجدتي ، أبي وأمي ، والخادمات .

في غور متاعب العائلة كمن عشق جدي للمشروعات ، ومرض جدتي ، وأفانين إسرافها . وغالبا ماكان جدي يمضي راحلا إلى بقاع نائية ، وقد راودته أحلام ذهبية ، بعد أن تغريه مشروعات يجلبها أصدقاء يثيرون الارتياب . كانت جدتي تنحدر من عائلة عريقة ، وتمقت جدي ، وتشبعه سخرية . كانت روحها ضيقة الأفق ، لا تقهر ، وحشية في شاعريتها ، وعلى نحو غير مباشر وباضطراد راحت حالة مزمنة من الألم العصبي بالجمجمة تلتهم أعصابها ، وتضيف في الوقت نفسه حدة لا جدوى منها إلى ذهنها ، ومن يدري ، أترى نوبات الاكتئاب تلك ، التي واصلت التعرض لها حتى لقيت حتفها ، لا تعدو أن تكون تذكارا للرذائل التي انغمس فيها جدي في ريعان شبابه ؟ .

إلى هذه الدار أحضر أبي أمي ، عروسا هشة وفاتنة . في

صبيحة الرابع من يناير ١٩٢٥ هاجمت آلام المخاض أمى ، وفى التاسعة من مساء ذلك اليوم انجبت وليدا صغيرا ، يزن خمسة أرطال وست أوقيات .

فى مساء اليوم السابع لف الطفل فى أردية داخلية من الصوف الناعم والحرير الشاحب الصفرة . ألبس كيمونو من الكريب الحريرى ذى الزخارف اللامعة . بحضور أهل الدار المجتمعين ، رسمت جدتى اسمى على شريحة مراسيمية من الورق ، وضعتها على منصة التقدمة فى ركن الصلاة .

كان شعرى يميل إلى الشقرة ، ظل كذلك لوقت طويل ، لكنهم دأبوا على وضع زيت الزيتون عليه ، حتى تحول إلى اللون الأسود أخيرا .

كان والداى يقيمان فى الطابق الثانى من الدار ، وبدعوى أنه مما ينطوى على مخاطرة أن تتم تربية طفل فى طابق علوى ، انتزعتنى جدتى من أحضان أمى فى اليوم التاسع والأربعين لمولدى . وضع فراشى فى غرفة مرض جدتى الموصدة الأبواب دائما ، والمفعمة بروائح المرض والشيخوخة ، فنشأت هناك إلى جانب فراش مرضها .

حينما أوشكت على إتمام العام الأول من عمرى ، سقطت من الدرجة الثالثة فى السلم ، فشج جبينى ، كانت جدتى قد ارتادت المسرح ، وكانت بنات عم أبى وأمى يستمتعن على نحو صاخب بهذه الاستراحة ، وانتهزت أمى المناسبة لتصعد بشىء ما إلى الطابق الثانى ، فيما كنت اتبعها ، تعثرت بذيل الكيمونو الذى كانت ترتديه ، فهويت على الدرج .

استدعيت جدتى هاتفيا من مسرح كابوكى . حينما وصلت، مضى جدى ليلقاها ، وقفت عند المدخل دون أن تخلع نعليها . منحنية على العصا ، التى تحملها فى يدها اليمنى ، راحت تحدق فى جدى بنظرة ثابتة ، عندما تحدثت تناهى صوتها هادئا على نحو غريب ، كأنما تنحت كل كلمة تلفظها :

– أمـــــات ؟

– لا .

عندئذ نزعت نعليها ، إجتازت المدخل ، عبرت البهو بخطى واثقة ، تحاكى خطى راهبة ...

صبيحة العام الجديد ، وقبيل عيد ميلادى الرابع ، لفظت شيئا فى لون القهوة ، فاستدعى طبيب العائلة ، بعد أن فحصنى قال بأنه ليس على يقين من أنى سأسترد عافيتى ، حقنت بالكافور

وسكر العنب حتى غدوت كوسادة الدبابيس ، أصبحت النبضات عند رسغي وفي أعلى ذراعي غير محسوسة .

انقضت ساعتان ، فوقفوا يحدقون في جثماني .

أعد كفن ، لملمت لعبي الأثيرة ، اجتمع الأقارب كلهم ، انقضت ساعة أخرى تقريبا ، ثم فجأة ظهر البول ، قال خالي ، وكان طبيبا : «إنه حي !» أضاف : إن ذلك يوضح أن القلب استأنف الخفقان .

بعد قليل ، عاود البول الظهور ، تدريجيا استرد خداى نور الحياة .

أصبح ذلك المرض - التسمم التلقائى - مزمنا عندى ، يداهمنى مرة كل شهر ، برفق حينا ، وفي خطورة حينا آخر ، واجهت أزمات عديدة ، غدوت قادرا على استشعار ما إذا كانت نوبة ماسترقى بى إلى الموت من عدمه ، من خلال دبيب أقدام المرض ، فيما هو يدنو .

إلى هذا الوقت على وجه التقريب تعود أقدام ذكرياتى ، ذكرى لايعلق بها تساؤل . ما انفكت تطاردنى بصورة نابضة بالحياة ، ومتوهجة على نحو غريب .

لست أدرى ما إذا كانت أمى هى التى تمضى بى ممسكة

بيدى ، ممرضة ، خادم ، أو إحدى عماتى ، لم يكن الفصل محددا كذلك ، تساقطت أشعة شمس الأصيل كابية على الدور المتناثرة على المنحدر ، رحت أتسلق المنحدر ، نحو الدار ، ويد امرأة غائمة الذكرى تمسك بى . أحدهم كان يقبل هابطا المنحدر ، فثنت المرأة ذراعى ، تنحينا عن الطريق ، ومكثنا ننظر على أحد الجانبين .

مامن شك فى أن صورة ما رأيته آنذاك قد اكتست معنى من جديد ، فى كل مرة من المرات التى لا حصر لها ، والتى أعدت النظر فيها من خلالها ، تكاثف زخمها ، وتركزت فى بؤرة النظر ، لأنه عبر المنظور الغامض والضبابى لذلك المشهد لم ينتصب شىء فى جلاء يختل تناسبه مع باقى مكونات المشهد بقدر ما بدا ذلك الشخص المقبل منحدرا عبر التل ، ولم يكن ذلك دونما سبب ، فقد كانت هذه الصورة ذاتها أولى الصور التى قدر لها أن تواصل تعذيبى وبعث الذعر فى نفسى طوال عمرى .

كان فتى شابا ذلك الذى أقبل منحدرا نحونا . متورد الخدين ، لامع العينين ، يعتمر لفافة قذرة من القماش ، ليحول دون انسياب العرق إلى عينيه ، أقبل عبر المنحدر حاملا على أحد كتفيه نيرا مثقلا بدلوين حفلا بسماد بشرى ، راح يوازن ثقلهما فى اقتدار بخطواته . كان جامعا للسماد البشرى ، ملتقطا للبقايا ، يرتدى ملابس كادح ، ينتعل فردتى حذاء ، تطل منهما

أصابع قدميه ، لهما نعلان من المطاط ، وأعلاهما من قماش القنب الأسود ، يكتسى سراويل من القطن ، قاتم الزرقة ، من النوع الضيق الذى يدعى بالشداد .

كانت النظرة التى حدجته بها شيئا غير مألوف من طفل فى الرابعة ، وعلى الرغم من أننى لم أدرك الأمر بجلاء فى ذلك الوقت ، فقد مثل هذا الشاب لى كشفى الأول لقوة معينة ، النداء الأول الذى وجهه لى صوت غريب وسرى . ومما له مغزاه أن يتجلى لى هذا فى صورة ملتقط للبقايا ، فالبراز رمز للأرض ، كان العشق الحارق للأرض الأم هو دونما شك الذى يناديني .

راودنى ، عندئذ ، شعور يستبق الأحداث بأن هناك فى هذا العالم لونا من الرغبات يحاكى ألما لاذعا . فيما كنت أحدق فى ذلك الشاب القذر خنقتنى الرغبة ، رحت أفكر : «أريد أن أتغير فأصبح إياه» وأمعن التفكير «أريد أن أكونه» بوسعى أن أتذكر بجلاء أن رغبتى كانت لها نقطتان بؤريتان ، الأولى هى «شداده» القاتم الزرقة ، والأخرى هى مهنته ، كانت السراويل الضيقة تحدد فى وضوح معالم النصف الأسفل من بدنه ، الذى كان ينساب لدنا . بدا لى كما لو كان يسير مباشرة نحوى ، ولد بأعماقى هيام يستعصى على الإفصاح بتلك السراويل ، ولم أفقه لذلك سببا .

أما مهنته ... فى تلك اللحظة ، وعلى النحو ذاته الذى تتملك فيه الأطفال الآخرين بمجرد تلقيهم هبة التذكر الرغبة فى أن يصبحوا قادة عسكريين ، قبض على ناصيتى طموح لأن أغدو جامع بقايا ، ربما يضرب هذا الطموح جذوره إلى حد ما فى السراويل القاتمة الزرقة ، لكن الأمر بالتأكيد لايقتصر على ذلك حصرا . مع مرور الوقت غدا هذا الطموح أكثر عتوا وايغالا فى أعماقى ، وشهد تطورا غريبا .

ما أقصده هو أننى شعرت حيال مهنته بشىء يحاكى أسى نفاذا ، أسى يهصر البدن . منحتنى مهنته الشعور بالمأساة بأكثر معانى الكلمة حسية ، شعور معين بالتخلى عن الذات ، إحساس محدد باللامبالاة ، شعور بعينه بالحميمية مع الخطر . شعور يحاكى مزيجا متميزا من العدم وقوة حيوية ، إندفعت هذه المشاعر كافة من ندائه ، إنقضت علىّ ، فأسرتنى فى الرابعة من عمرى ، لربما كان فهمى لمهنة جامع البقايا يجانبه الصواب ، ربما حدثونى عن مهنة أخرى مختلفة ، ربما ضللنى رداؤه ، فأرغمت على أن أضع عمله فى إطار النموذج الذى سمعت عنه ، لايسعنى فيما عدا ذلك إيضاح الأمر .

لابد أن الأمر كان كذلك ، لأن طموحى حولته تلك الانفعالات ذاتها إلى سائقى الهانا - دينشا ، تلك العربات المرحة

الزخارف والمثقلة بالزهور لأيام الاحتفالات ، أو إلى عمال بطاقات القطارات الأرضية ، فقد أثارت المهنتان فيّ انطباعا قويا بحيوات مأساوية أجهلها ، بدت لى وكأنما حجبت للأبد عني ، كان هذا صحيحا بصفة خاصة فى حالة عمال البطاقات ، فاختلطت فى ذهنى صفوف الأزرار الذهبية على سترات أردية عملهم الزرقاء بالروائح المتدفقة عبر الانفاق فى تلك الأيام ، كانت تحاكى رائحة المطاط أو النعناع ، وتستدعى ما يرتبط فى الذهن بالأمور المأساوية ، شعرت على نحو ما بأنه أمر مأساوى بالنسبة لشخص ما أن يكسب مايقيم أوده وسط مثل هذه الرائحة ، شكلت ضروب الوجود والأحداث التى تقع دون أن يكون لها علاقة بى ، والتى تحدث فى أماكن لم تكن تخاطب حواسى فحسب ، وإنما كانت فضلا عن هذا محظورة علىّ ، بالاضافة إلى الأشخاص المنغمسين فيها ، تعريفى للأمور المأساوية ، بيد أن حزنى إزاء الحيلولة بينى وبينها قد تحول فى أحلامى إلى حزن على أولئك الأشخاص وطرق حياتهم ، وأنه من خلال حزنى وحده كنت قادرا على مشاركتهم ضروب وجودهم .

إذا كان الأمر كذلك ، فإن مايدعى بالأمور المأساوية ، والتى شرعت فى ادراكها ، ربما لم تتجاوز كونها ظلالا ألقاها التجلى العابر للحزن ، والذى سيتعاظم فى المستقبل . والنابع من

انعزال أكثر اتساما بالوحدة ، كان لايزال فى انتظارى ...

هناك ذكرى باكرة أخرى ، تدور حول كتاب مصور ، ورغم أننى تعلمت القراءة والكتابة فى الخامسة من عمرى ، فإننى لم أستطع قراءة الكلمات فى ذلك الكتاب ، من هنا فلابد أن هذه الذكرى بدورها تعود إلى سن الرابعة .

كان لدىَّ عديد من الكتب المصورة ، لكن خيالى لم ينفرد بالسيطرة عليه تماما إلا هذا الكتاب ، إلا صورة واحدة فيه ، كانت تجعل عينىَّ مفتوحتين عليها دائما ، استطعت أن أقضى أصائل طويلة ومضجرة أحدق فيها ، ومع ذلك فما أن يقبل أحد حتى يراودنى شعور بالذنب ، دونما سبب ، فأهرع إلى تقليب الكتاب إلى صفحة مختلفة ، كانت يقظة الممرضة أو الخادم فى مراقبتى تضايقنى ، على نحو لايطاق ، فساورنى الحنين إلى حياة تسمح لى بالتحديق فى الصورة طوال اليوم ، ما إن كنت التفت إلى هذه الصفحة حتى يتسارع وجيب قلبى ، ومامن صفحة أخرى عنت شيئا لى .

كانت الصورة تمثل فارسا نبيلا يمتطى صهوة جواد أبيض ويمتشق حساماً . كان الجواد ، وقد اتسعت خياشيمه ، يفحص الأرض بقوائم عفية ، وثمة شعار بديع للنبالة يوشى الدرع الفضى الذى يسبغه الفارس على بدنه ، ويطل وجه النبيل الفاتن عبر

مقدمة النموذج ، فيما يلوح بسيفه المسلول على نحو مخيف فى السماء الزرقاء ، مواجها الموت ، أو على الأقل شيء مندفع ينضح قوة شريرة ، كنت اعتقد أنه سيلقى مصرعه فى اللحظة التالية ، فإذا ما سارعت بتقليب الصفحة فيقينا سأراه هناك يلقى مصرعه يقينا ثمة ترتيب يمكن بمقتضاه ، ، وقبل أن يعرف المرء الأمر ، تحويل الصور فى الكتب المصورة لتمثل «اللحظة التالية» ...

لكن المصادفة جعلت ممرضتى تفتح الكتاب على تلك الصفحة ، فيما كنت أختلس نظرات جانبية سريعة إليها ، قالت :

– أيعرف السيد الصغير حكاية هذه الصورة ؟

– لا ، لا أعرفها .

– إنها تبدو كالرجال ، لكنها امرأة ، صحيح ، وأسمها جان دارك ، تقول القصة إنها انطلقت للحرب فى رداء الرجال ، وعلت بشأن بلادها .

– امرأة ...؟

أحسست كما لو أن ضربة أصابتنى ، فألقتنى صريعا ، كان الشخص الذى ظننته رجلاً امرأة ، فإذا كان هذا النبيل بهى الطلعة امرأة فما الذى يبقى ؟ (لازلت حتى اليوم استشعر اشمئزازا ضارب الجذور عصى التفسير حيال النساء اللاتى

يرتدين ملابس الذكور) كان هذا هو أول «إنتقام من خلال الواقع» ألقاه فى الحياة ، بدا لى انتقاما قاسيا ، خاصة عقب التصورات العذبة التى راودتنى حول موته . منذ ذلك اليوم لم ألق بالا إلى ذلك الكتاب المصور ، لم أحمله بين يدى أبدا مرة أخرى . وقدر لى أن أكتشف ، بعد سنوات ، تمجيدا لموت نبيل بهى الطلعة فى مقطع شعرى لأوسكار وايلد يقول :

بهى هو الفارس الذى يرقد ذبيحا

وسـط الأسـل والقصـب ...

فى روايته بعنوان «السفح» يناقش يوسمان شخصية جى ديرى ، حارس جان دارك الخاص «بمقتضى الأمر الملكى الذى أصدره شارل السابع ، فيقول إن الدافع الأصلى لنزعته الصوفية قد إنبعث من مشاهدته بعينى رأسه الأعمال التى اجترحتها جان دارك ، وذلك على الرغم من أن هذا الدافع سرعان ما ارتكس الى «أكثر ضروب القسوة تعقيدا وأفظع الجرائم» وعلى الرغم من أنها كان لها تأثير مناقض بالنسبة لى ، حيث كانت تثير فىّ شعورا بالاشمئزاز ، فإن عذراء أوليان لعبت كذلك دورا مهما فى حالتى ..

ثمة ذكرى أخرى أيضا ، هى رائحة العرق ، وهى رائحة كانت تدفعنى إلى أعماقى ، وتثير أشواقى ، فتقهرنى ..

منصتا أسمع صوت جلبة مكتومة وبالغة التهافت ، تبدو كما لو كانت وعيدا ، هنيهة ويشارك بوق فى الضجيج ، يتناهى صوت غناء بسيط حزين على نحو غريب ، أجذب يد الخادم ، أحثها لتسرع الخطى ، أتوهج رغبة فى الوقوف عند البوابة ، وقد شبكت ذراعيها حولى .

كان الجنود يمرون ببوابتنا عائدين من التدريب ، وهم مولعون بالأطفال . كنت أتوق دوما إلى تلقى بعض الطلقات الفارغة منهم ، ولما كان جدى قد منعنى من قبول هذه الهدايا ، قائلا إنها خطرة ، فقد شحذت مباهج الاختلاس ترقبى ، فى الوطء الثقيل لأحذية الجيش والأزياء العسكرية الملطخة وغابة البنادق التى تعلو الكواهل الكفاية ليفتتن أى طفل تماما ، لكن رائحة عرقهم التى كانت تفتننى ، مشكلة مثيرا يقبع خفيا فى أغوار أملى فى أن أتلقى منهم الطلقات الفارغة .

رائحة عرق الجنود ، تلك الرائحة التى تحاكى نسيم البحر ، كالهواء وقد احترق فاستحال نضارا فوق الشاطىء ، كانت تلطم خياشيمى ، وتسمم دمى . لربما كانت تلك أولى ذكرياتى عن الروائح ، ومن الغنى عن البيان أن الرائحة ما كان يمكن أن تكون لها فى ذلك الوقت علاقة مباشرة بالأحاسيس الجنسية ، لكنها تدريجيا وفى عناد أثارت فىّ توقا حسيا إلى أمور

من نوعية مصير الجنود والطبيعة المأساوية لندائهم ، والأصقاع النائية التى يرونها ، والطرق التى يلقون حتفهم بها ...

هذه الصور الغريبة كانت أول الأشياء التى واجهتها فى الحياة ، منذ البداية انتصبت أمامى فى صمت اكتمالها المهيمن ، لا ينقصها شىء واحد ، وفيما بعد كنت أنظر إليها بحسبانها ينابيع مشاعرى وتصرفاتى ، ومجدداً ماكان ينقص شىء .

أبدا لم تنحرف أفكارى عن الوجود الانسانى . منذ الطفولة مرة واحدة عن نظرية القديس أوجستين فى القضاء والقدر . عذبتنى شكوك لا طائل وراءها مرارا وتكرارا - على نحو ماتواصل تعذيبى اليوم - لكننى نظرت إلى مثل هذه الشكوك باعتبارها نوعا آخر من الاغراء باقتراف الخطيئة ، وظللت على يقينى بآرائى الجبرية . لقد أعطيت ، ومازلت أصغر من أن أطالع ما منحت ، مايمكن أن يدعى بقائمة كاملة تضم كافة المتاعب فى حياتى ، بل دون فى هذه القائمة قيامى بتدبيج كتاب غريب كهذا على وجه الدقة ، وكان هناك أمامى ناظرىّ منذ البداية .

مرحلة الطفولة ساحة يتشابك فيها الزمان والمكان ، فهناك على سبيل المثال الأنباء التى أتلقاها عن الكبار حول وقائع تجرى فى أصقاع شتى - ثورة ، بركان ، أو لنقل انتفاضة جيش -

والأمور التى تحدث أمام عينى – نوبات مرض جدتى ، أو منازعات العائلة الصغيرة – والأحداث الخيالية لعالم الأقاصيص الخرافية ، الذي شرعت وقتذاك فى الانغماس فيه . بدت لى هذه الأمور الثلاثة دائما متكافئة القيمة كأنها الكل فى واحد . لم يكن بمقدورى تصديق أن العالم يفوق فى التعقيد بناء سكنياً ، أو أن مايسمى بالكيان الاجتماعى الذى يتعين علىّ فى التو أن ألجه يمكن أن يكون أكثر ابهارا من عالم الأقاصيص الخرافية ، هكذا شرعت إحدى القوى التى قررت حياتى تمارس عملها دون أن أدرى ، وبسبب صراعى معها منذ البداية ، امتزجت كافة تصوراتى باليأس ، الذى كان غريباً فى إطباقه ، ويحاكى فى ذاته رغبة مفعمة بالعاطفة .

ذات ليلة ، رأيت وأنا أطل من فراشى مدينة متألقة ، تطفو عبر رحاب الظلام ، الذى يجثم حولى ، بدت غريبة لاتزال ، ومع ذلك تتدفق بريقا وغموضا استطعت أن ألمح بوضوح لمسة صوفية ترتسم على ملامح الأشخاص فى تلك المدينة ، كانوا كبارا ، يعودون إلى الدور فى قلب الليل ، ومازالوا يحملون فى الحديث أو الإيماء آثار شيء كالإشارات السرية وردودها ، شيء يقطر سرية فضلا عن هذا برق في ملامحهم وهن ألاق ، جعلهم يخشون أن يحدق فيهم أحد ملء عينيه ، كما هو شأن الأقنعة التى توضع على

الوجوه فى مسرح العطلات ، والتى تخلف مسحوقا فضيا على أطراف الأصابع حين يلمسها المرء ، بدا لى أننى لو استطعت فحسب أن ألمس وجوههم ، لكان بمقدورى أن أكتشف لون الأصابع التى طلتهم بها المدينة الليلية .

فى التو ، رفع الليل أمام عينى مباشرة ستارا كشف النقاب عن خشبة المسرح التى كانت شوكوكيوساى تنكاتسو تؤدى فوقها ألعابها السحرية (كانت آنئذ فى واحدة من مرات ظهورها النادرة علي المسرح فى مقاطعة شنجوكو ، وعلى الرغم من أن استعراض الساحر دانتى ، الذى شاهدته فى المسرح ذاته عقب ذلك بسنوات كان على نطاق يفوق عرضها بكثير ، فإن أياً من دانتى أو العرض الشامل لسيرك هاجنبيك لم يفلح فى ادهاشى ، على نحو مانجحت مشاهدتى الأولى لتنكاتسو) .

كانت تتكىء فى تكاسل على خشبة المسرح ، وقد ألتف بدنها الوافر فى أثواب كأثواب البغى الكبرى يوم الدينونة ، وعلى ذراعيها التمعت أساور تكومت فوقها الأحجار الكريمة الزائفة ، كانت زينتها ثقيلة ، مثل زينة مغنيات الأهازيج الشعبية ، بطبقة من المسحوق الأبيض تمتد حتى أطراف أظافر قدميها ، وانسدل عليها رداء مبهرج ، أسلمها إلى ضرب من الرونق الحيوانى ، لاينعكس إلا عن إدعاء تجارى كاذب . رغم ذلك فإن هذا كله حقق

بشكل ما نوعا من التناسق على نحو سوداوى مع تفاخرها النابع من شعورها بالأهمية ، الذى يتميز به السحرة والنبلاء المنفيون على السواء ، ومع فتنتها الكئيبة ، ومظهرها البطولى . لقد أنبتت الحبة الرقيقة للظل الذى ألقته هذه العناصر المجردة من التناسق وهمها المذهل والفريد عن التناسق .

أدركت ، وإن يكن على نحو غامض ، أن الرغبة فى أن «أغدو تنكاتسو» وأن «أصبح سائق حافلة عامة» تختلفان من حيث الجوهر ، وكان أبرز تباين بينهما هو الحقيقة القائلة بأن التوق فى حالة تنكاتسو إلى «السمة المأساوية» كان غائبا كلية على وجه التقريب ، فلم يكن علىّ فى غمار رغبتى فى أن أصبح تنكاتسو أن أتذوق ذلك الخليط المرير من الحنين والعار . مع ذلك ، فقد تسللت، ذات يوم ، محاولا ما وسعتنى حيلتى أن أسكن دقات قلبى الخافقة إلى حجرة أمى ، وفتحت أدراج خزانة ثيابها .

سحبت من بين أثواب أمى أكثرها جمالا ، كيمونو تصبغه أكثر الألوان جرأة . وأخترت أوبى[1] تعلوه زهور زيتية فاقعة الحمرة كزنار لى ، لففته حول خصرى مرات عديدة ، كما يفعل باشا تركى ، غطيت رأسى بغطاء من قماش الكريب الصينى .

(١) الأوبى زنار يابانى عريض . (هـ . م).

تألق خداى بحمرة سرور وحشى ، حينما وقفت أمام المرآة ، ورأيت أن ما اعتمرته يحاكى ما يعتمره القراصنة فى «جزيرة الكنز» .

لكن عملى لم يكن قد انتهى بعد ، كان من الضرورى جعل كل التفاصيل حتى أطراف أظافر أصابعى جديرة بإبداع الأحجية. دفعت بمرآة يد فى زنارى ، وضعت المساحيق ثقيلة على وجهى ، ثم سلحت نفسى بمشعل كهربى فضى اللون وقلم عتيق الطراز من معدن مثقل بالزخارف وأى شىء آخر لفت نظرى .

اصطنعت الوقار ، إندفعت على هذا النحو إلى غرفة جلوس جدتى . فى غمار عجزى عن كبت ضحكى وسرورى المهتاجين ، إندفعت أعدو فى الغرفة صائحا :

«أنا تنكاتسو ! إياى ، أنا تنكاتسو !»

كانت جدتى هناك طريحة الفراش ، وأمى أيضا ، وزائرة ، وخادم عهد إليها بالعناية بالغرفة ، لكن شخصا واحدا لم يلح أمام عينى ، وتركزت نوبتى على الوعى بأنه من خلال تشخيصى كانت تنكاتسو تتجلى أمام أعين عديدة ، وباختصار لم أكن أرى إلا نفسى .

ثم تصادف أن لمحت وجه أمى ، كان الشحوب قد علاها قليلا ، جلست هناك ببساطة ، كأنما جالت بأفكارها بعيدا ، إلتقت

نظراتنا ، فغضت ناظريها .

فهمت . أغشت الدموع ناظريّ .

ماهو ذلك الذى فهمته أو أوشكت على فهمه ؟ هل ظهر هنا الدافع الذى سيتجلى فيما بعد أى «الندم كمقدمة للخطيئة» فى أولى إشارات بدايته ؟ أم ترى كانت هذه اللحظة تعلمنى إلى أى حد ستبدو عزلتي غريبة للعيون المحبة ؟ أكنت أتعلم فى الوقت نفسه من الجانب المعكوس لهذا الدرس عجزى عن تقبل الحب ؟...

أمسكت بى الخادمة فى إحكام ، وصحبتنى إلى غرفة أخرى ، وفى لحظة وكأنما كنت دجاجة يتعين نزع ريشها . جردتنى من زيى التنكرى المفرط فى الخيال .

تفاقم ولعى بمثل هذه الأردية ، حينما شرعت فى ارتياد دور السينما ، واستمر على نحو ملحوظ حتى التاسعة من عمرى .

ذات مرة مضيت مع صبى يعمل بالدار فى الوقت الذى يواصل فيه الدراسة لمشاهدة فيلم عن أوبريت «فراديافولو» . وكان الممثل الذى يقوم بدور ديافلوا يرتدى ثوبا للتشريفة لا ينسى ، ذا سلسلة من شرائط الزينة عند الرسغين ، وحينما قلت إننى أود ارتداء ثوب كهذا ووضع شعر مستعار يحاكى شعر ذلك الممثل ، انفجر رفيقى فى الضحك ساخرا ، رغم ذلك كنت أعلم أنه كان

يسلى الخادمات فى جناحهن فى الغالب بمحاولات تقليد شخصية الأميرة يجاكى فى الكابوكية المعروفة . (١)

فتنت بكليوباترا بعد تنكاتسو . ذات يوم رقشه الجليد فى نهاية شهر ديسمبر ، استجاب طبيب تربطه صداقة بالعائلة لتوسلاتى ، وصحبنى لمشاهدة فيلم عنها ، ولما كان العام يدنو من نهايته كان عدد النظارة محدودا ، فوضع الطبيب قدمه على الحاجز ، وغرق فى النوم ، وحيدا رحت أتطلع فى حدة مفتون اللب تماما ، كانت ملكة مصر تدخل روما مرفوعة عاليا فوق محفة عتيقة الطراز ، بديعة الصنع ، تحملها كواهل رهط من العبيد ، عينان حزينتان ، يعلو ظل العيون كثيف الجفون ، زينتها التى تبدو منتمية إلى عالم آخر ، ثم جسدها نصف العارى ، الكهرمانى اللون ، يتراءى للعيون ، مجترحاً الخروج من سجادة فارسية .

فى هذه المرة راوغت أعين جدتى ووالدىّ ، وبمساعدة أختى وأخى الصغيرين الذين تواطآ معى ، وفى غمار بهجة عارمة ، عكفت على محاكاة كليوباترا فى زيها وزينتها . ما الذى كنت أرجوه من وراء هذا الرداء الأنثوى ؟ لم أكتشف إلا بعد ذلك بوقت طويل آمالا تحاكى تلك التى راودتنى ، وذلك عند هيلوجابالوس

---

(١) الكابوكية مسرحية يابانية شعبية يصحبها غناء ورقص (هـ . م).

إمبراطور روما فى عهد تحللها ، الذى ألحق الدمار بآلهتها القدامى ، ذلك الامبراطور المتحلل ، بهيمى الطباع .

مثّل جامع البقايا ، وعذراء أورليان ، ورائحة العرق المنبعثة من الجنود نوعا من الاستهلال لحياتى ، وشكلت تنكاتسو وكليوباترا استهلالا آخر ، وثمة استهلال ثالث ينبغى أن أتحدث عنه .

على الرغم من أننى فى طفولتى طالعت كل الأقاصيص الخرافية التى استطاعت يداى الوصول إليها ، فلم يحدث أبدا أن أحببت الإميرات ، كنت مولعا بالأمراء فحسب ، وأكثر ولعا بالأمراء الذين يلقون مصرعهم ، أو قدر لهم الموت ، أحببت حبا جما أى شاب يلقى منيته صريعا .

لكننى لم أفقه لِمَ ألقت قصة «عفريت الورد» - من بين أقاصيص أندرسون جميعها ظلالا غائرة على قلبى ، وحده ذلك الفتى الجميل ، الذى أطاح شرير برأسه مستخدما سكينا هائلة ، فيما كان هو يقبل وردة منحتها له حبيبته هدية - أثر فى نفسى . لم أفهم السبب فى أنه من بين أقاصيص وايلد العديدة لم تأسرنى إلا جثة الصياد الشاب فى قصة «ألصياد وروحه» ، وقد ألقتها الأمواج على الشاطىء ضامة إلى الصدر عروس بحر .

ومن الطبيعى أننى كنت مولعا بما فيه الكفاية كذلك بالأمور الطفولية الأخرى ، فهناك قصة «البلبل» لأندرسون التى أحببتها كثيرا ، كما أبهجنى العديد من كتب الأطفال الفكاهية ، لكن ميل قلبى إلى الموت والليل والدم كان أمرا لاينكر .

طاردتنى رؤى «الأمراء الصرعى» فى عناد . منذا كان بوسعه أن يفسر لى لماذا كنت أبتهج بتصورات ترتبط فيها السراويل الضيقة التى تكشف الجسد والتى يرتديها الأمراء بمصارعهم القاسية ؟ هناك قصة خرافية مجرية أتذكرها بنوع خاص فى هذا الصدد ، وقد أسرت قلبى لفترة طويلة لوحة تصور تلك القصة بواقعية مفرطة .

كانت اللوحة المطبوعة بألوان بدائية تصور الأمير مرتديا سراويل سوداء وسترة وردية اللون ، توشيها زخارف منسوجة بالذهب على الصدر ، وعلى كتفيه تدلت حرملة قاتمة الزرقة ، يتألق فيها خط متوهج الحمرة ، ويلتف حول خصره حزام ، يجمع بين اللونين الأخضر والذهبى ، كان مزودا بخوذة خضراء مذهبة ، وسيف فاتح الحمرة ، وجعبة من الجلد الأخضر ، أما يده اليسرى ، التى علاها قفاز من الجلد الأبيض ، فكانت تمسك بقوس ، فيما جثمت يده اليمنى على أحد فروع شجرة عتيقة من أشجار الغابة . كان ينظر بمحيا جاد آمر إلى العنق المخيف للتنين

الهائج ، الذى كان يوشك أن ينقض عليه . ارتسم على ملامحه عزم من يوشك على ملاقاة الموت ، ولو أن ذلك الأمير قدر له أن يخرج من نزاله مع التنين ظافراً ، فما أضعف ما كان يمكن أن يكون عليه افتتاني به ، لكنه لحسن الحظ كان مقدرا له أن يموت .

غير أن قدر الموت الذى كتب له لم يكن لأسفى كاملاً ، فلكى ينقذ أخته ويتزوج أميرة جميلة كان عليه أن يتحمل سبع مرات محنة الموت ، وبفضل القوى السحرية التى تتمتع بها ماسة كان يضعها فى فمه ، بعث سبع مرات ، وأخيرا عاش سعيدا بعد ذلك .

صورت اللوحة مشهدا يسبق الموت الأول مباشرة ، حيث يلتهم التنين الأمير ، وعقب ذلك «أمسكت به عنكبوت هائلة ، وإثر تسميم جسمه بالسم تماما التهم فى نهم» ، من جديد أغرق ، وجرى شيه فى النار ، ولدغته الزنابير ، وعضته الثعابين ، وألقى جسده إلى حفرة حفلت بعدد لا يمكن التعبير عنه من السكاكين الهائلة المشرعة ، وسحقته حتى الموت صخور لا حصر لها تهاوت متساقطة عليه «منهمرة كالمطر» .

ووصف موته من خلال التهام التنين له بتفصيل خاص :

«دون إحجام للحظة واحدة ، مضغ التنين الأمير بشراهة فأحاله أشلاء ، كان ذلك يفوق مايسعه احتماله على وجه التقريب ،

لكن الأمير استجمع أطراف شجاعته ، وتحمل العذاب فى صمود حتى مضغ كلية أخيرا إلى مزق ، وعندئذ وفى لمحة أعيد فجأة تجميعه ثانية ، فقفز فى براعة من فم التنين ، لم يكن هناك خدش واحد فى أى موضع من جسده ، والتنين هوى إلى الأرض ، ومات فى موضعه .»

قرأت هذه الفقرة مئات المرات ، لكن العبارة القائلة : «لم يكن هناك خدش واحد فى أى موضع من جسده» بدت لى خللا لا يمكن أن يمضى دون تصد له ، شعرت لدى مطالعتها بأن المؤلف خذلنى ، وارتكب خطأ خطيراً فى وقت واحد .

وسرعان ما توصلت بالصدفة إلى اكتشاف ، وتمثل هذا الاكتشاف فى قراءة الفقرة مع اخفاء المقطع التالى تحت يدى : «أعيد فجأة تجميعه ثانية ، فقفز فى براعة من فم التنين ، لم يكن هناك خدش واحد فى موضع من جسده ، أما التنين» وعند ذلك ستصبح القصة مثالية فى سردها على النحو التالى :

«دون إحجام للحظة واحدة ، مضغ التنين الأمير بشراهة ، فأحاله أشلاء ، كان ذلك يفوق ما يسعه احتماله على وجه التقريب ، لكن الأمير استجمع أطراف شجاعته ، وتحمل العذاب فى صمود حتى مضغ كلية أخيراً إلى مزق ، وعندئذ وفى لمحة هوى إلى الأرض ، ومات فى موضعه .»

كان حريا بأحد الكبار على وجه اليقين أن يرى عبث مثل هذا المنهاج فى تقطيع النص ، بل إن ذلك الرقيب الصغير المتشدد رصد التناقض الكامل بين القول بأن الأمير مضغ كلية إلى مزق والقول بأنه هوى إلى الأرض ، لكن تصوراته فتنته فى يسر ، ووجد أنه لايزال من المستحيل نبذ أى من العبارتين .

من ناحية أخرى داخلتنى البهجة فى غمار تصور مواقف كنت أنا نفسى ألقى مصرعى فيها خلال معركة أو أقتل غيلة ، ومع ذلك كنت أخشى الموت بصورة غير عادية ، وعلى نحو قوى ، كنت أستأسد على إحدى الخادمات فى أحد الأيام حتى ادفعها إلى البكاء وفى صباح اليوم التالى أراها تقدم طعام الافطار بوجه باسم على نحو مرح ، وكأنما لم يحدث شىء ، عندئذ كنت أطالع كافة المعانى الشريرة فى ابتساماتها ، ما كنت لأصدق إلا أن هذه الابتسامات هى ابتسامات شيطانية تنبع من الثقة الكاملة بالفوز . كنت على يقين بأن الخادمة تتآمر لدس السم لى فى الطعام بدافع الانتقام ، راحت أمواج الخوف تزمجر فى صدرى ، تيقنت أن السم قد دس فى صحفة الحساء ، وما كنت لأمسها ، ولو منحت مقابلها العالم كله . انهيت عديدا من مثل هذه الوجبات ، بالقفز عن المائدة والتحديق فى الخادمة ، وكأنما لأقول لها :

«هكذا !» . بدا لى أن المرأة بلغ بها الاستياء لإحباط خططها لتسميمى الحد الذى لا تستطيع معه النهوض ، وإنما

التحديق فحسب عبر المائدة إلى الحساء الذى غدا باردا تماما ، وطفا بعض الغبار على سطحه ، وتحديث نفسها بأننى تركت الكثير منه بحيث أن السم لن يسرى مفعوله .

حظرت جدتي عليّ اللهو مع أطفال الحى خوفا على صحتى الهشة ، وكذلك لمنعى من تعلم أمور سيئة منهم ، وباستثناء الخادمات والمرضات كانت رفيقاتى فى اللهو ثلاث طفلات اختارتهن جدتى من فتيات الحى . كان أدنى ضجيج يؤثر على ألم جدتى العصبى . كالفتح أو الإغلاق العنيفين للباب . النفخ فى لعبة على هيئة بوق ، المصارعة ، أو إحداث أى صوت مسموع ، أو اهتزاز من أى نوع ، وتعين أن يصبح لهونا أكثر هدوءا حتى عما هو مألوف بين الفتيات الصغيرات ، كنت أفضل على هذا كثيرا أن انفرد بنفسى وأطالع كتابا ، ألهو بمكعبات البناء ، أنغمس فى أخيلتى التواقة ، أو أرسم بعض الصور ، وحينما ولدت أختى وأعقبها أخى لم يعهد بهما إلى جدتى على نحو ما حدث لى ، وحرص أبى على تنشئتهما بحرية تلائم الأطفال ، ومع ذلك لم أحسدهما كثيرا على حريتهما وفظاظتهما .

لكن الأمور كانت تختلف حينما أمضى لزيارة دور أبناء أعمامى ، عندئذ كنت أدعى ولدا ، ذكرا . وقعت حادثة ينبغى أن تروى فى مطالع ربيع عامى السابع ، قبيل إلتحاقى بالمدرسة الابتدائية خلال زيارة دار إحدى بنات عمومتى وسأدعوها هنا

رمزا باسم سوجيكو . لدى وصولنا إلى هناك ، وكانت جدتى قد اصطحبتنى معها ، رقت بى والدة ابنة عمتى إلى عليين ، بما أمطرتنى به من آيات الثناء قائلة : «لكم كبر ! يا للضخامة التى غدا عليها !» وبلغ من سرور جدتى لهذا الثناء الحد الذى منحتنى معه إعفاء خاصا . كانت حتى ذلك الوقت تخشى هجمات التسمم الذاتى المتكررة التى سبق لى أن أشرت إليها ، حتى أنها منعتنى من تناول كافة الأسماك «ذات الجلد الأزرق» وحدد طعامى بدقة ، فلم يسمح لى من الاسماك إلا بتناول الأنواع ذات اللحم الأبيض ، مثل الهلبوت ، أو سمك الترس ، أو النهاش الأحمر ، ومن البطاطس لم يصرح لى بغير المهموك منها والمصفى بمصفاة الطعام ، ومن الحلوى حظرت علىّ كافة أنواع المربى ذات البذور ، وما أتيح لى إلا الرقائق الخفيفة وأنواع الفطير الهشة ، وما إلى ذلك من الحلوى الجافة ، ومن الفواكه لم يسمح لى إلا بالتفاح المقطع إلى شرائح رفيعة أو قطع صغيرة من اليوسفى . من هنا فقد تناولت فى هذه الزيارة أول سمكة لى من ذوات الجلد الأزرق ، وكانت سمكة صفراء الذيل ، التهمتها بغبطة هائلة ، كان مذاقها الطيب يعنى بالنسبة لى أننى قد سمح لى بتلقى أول حقوق الكبار التى أنالها ، لكنها فى الوقت نفسه خلفت لى نكهة مريرة على طرف لسانى ، قوامها الشعور بعدم الارتياح ، وهو شعور انتابنى

إذ أصبحت من الكبار ، ومازال يردنى إلى إحساس بعدم الارتياح كلما تذوقت ذلك السمك .

كانت سوجيكو فتاة تفيض صحة ، مفعمة بالحياة ، لم أستطع أنا ذاتى المضى للرقاد بسهولة ، وحينما كنت أمكث فى دار سوجيكو ، وأرقد فى الغرفة ذاتها وعلى حشية قريبة من حشيتها ، اعتدت أن أراقب ، بمزيج من الحسد والاعجاب ، الكيفية التى تغط بها فى النوم دائما لحظة أن تضع رأسها على الوسادة ، تماما كأنها آلة .

أتيح لى فى دار سوجيكو أضعاف ما يتاح لى فى دارى من حرية ، حيث لم يكن الاعداء الوهميون الذين من المحتم أنهم يرغبون فى انتزاعى خلسة – ولنقل باختصار والداى – موجودين فلم يكن لدى جدتى ماتخشاه من منحى المزيد من الحرية ، فلم تكن هناك حاجة إلى إبقائى فى متناول عينيها ، كما هو الحال فى الدار .

رغم ذلك لم يكن بمقدورى الاحساس بالبهجة فى غمار هذه الحرية التى أتيحت لى ، ومثل مريض يخطو خطواته الأولى فى دور النقاهة ، راودنى شعور بالتصلب ، كما لو كنت أتحرك تحت اجبار التزام وهمى . إفتقدت فراش خمولى ، وفى هذه الدار كان من المطلوب على نحو ضمنى أن أتصرف كما يتصرف الصبية ، لقد

بدأ التفكير الوئيد المتردد . كنت فى هذا الوقت قد شرعت على نحو غامض فى فهم آلية الحقيقة القائلة بأن ما ينظر اليه الناس باعتباره ادعاء من جانبى هو بالفعل تعبير عن حاجتى إلى تأكيد طبيعتي الحقة ، وأن مايراه الناس حصرا على أنه ذاتى الحقيقة لايعدو أن يكون تنكرا .

كان هذا التنكر الإرغامى هو الذى جعلنى أقول :

- هيا ، لنلعب لعبة الحرب ! .

وبما أن رفيقتىّ كانتا بنتين ، أى سوجيكو وابنة عم أخرى ، فإن لعبة الحرب لم تكن باللعبة المناسبة ، ومع ذلك فإن المحاربتين الامازونيتين اللتين كانتا خصمىّ لم تظهرا إلا المزيد من الحماس . كان السبب الذى دفعنى لاقتراح هذه اللعبة يكمن كذلك فى شعورى المرتكس بالواجب الاجتماعى ، فباختصار كنت أشعر بأننى لاينبغى أن أتزلف إلى البنتين ، وإنما علىّ بشكل ما أن أجعلهما تمضيان وقتا حافلا بالضيق والمشقة .

وعلى الرغم من أننا جميعا كنا نشعر بالضيق والضجر ، فقد واصلنا لعبة حربنا المتخبطة ، داخل الدار الغارقة فى عتمة الغسق وخارجها ، كانت سوجيكو كامنة وراء شجيرة تقلد لعلعة مدفع رشاش :

– بانج ! بانج ! بانج !

أخيراً قررت أن الوقت قد حان لوضع نهاية للأمر ، وشرعت فى عدو جنونى نحو الدار ، أقبلت المحاربتان مسرعتين خلفى مطلقتين سيلا متواصلاً من صرخات تقليد الرشاشات . أمسكت بقلبى ، وانهرت مترنحا وسط غرفة الاستقبال .

تساءلوا مقبلين علىّ بوجوه علاها القلق : ماذا جرى ياكوتشان ؟ أجبت دون أن أفتح عينى أو أحرك يدى : إننى أموت فى ساحة المعركة .

أبهجنى بلا حدود تصور جسدى مسجى هنا ملتويا وهامدا ، كانت هناك بهجة تتحدى الكلمات فى أن أكون قد صرعت بالرصاص وعلى وشك الموت . خيل الىّ أنه بما أننى أنا الراقد هناك فلن يكون ثمة ألم يقيناً ، حتى وإن أصابتنى طلقة رصاص ...

يالسنوات الطفولة ...

تتداح ذاكرتى نحو مشهد قد يكون رمزا لهاتيك السنين ، فذلك المشهد يمثل لى اليوم بما أنا عليه الطفولة ذاتها ، ماضيا لا سبيل إلى استعادته . حينما رأيت المشهد أحسست بيد الوداع التى ستلوح لى بها الطفولة بين يدى رحيلها ، راودنى هاجس فى

تلك اللحظة بأن شعورى بالزمن الذاتى أو إنعدام الزمن قد ينبثق ذات يوم من أعماقى ، فيغمر سطح ذلك المشهد ، ليصبح تقليدا دقيقا لناسه ، وحركاته ، وأصواته ، التى تنطلق عفوية مع إكتمال هذه النسخة ، وقد يذوب الأصل بعيدا منداحا إلى رؤى الزمن الموضوعى النائية ، وأننى قد أترك دونما شىء إلا التقليد وحده ، أو لطرح الأمر على نحو آخر ، قد أترك دونما شىء يتجاوز نموذجا أجوف دقيق الشبه لطفولتى .

يعانى الجميع مثل هذا الحادث فى طفولتهم ، غير أنه فى معظم الأحوال يتخذ صورة مخففة ، لا تستحق حتى أن تدعى حادثا ، حتى ليمكنها أن تنقضى دونما ملاحظة .

وقع المشهد الذى أتحدث عنه حينما تدفق جمع حاشد ، يحتفل بمهرجان الصيف ، مارا عبر بوابتنا .

أقنعت جدتى ، من أجلى وبسبب قدمها العرجاء معاً ، رجال الإطفاء بالحى أن يرتبوا الأمر بحيث تمر مواكب المهرجان الخاصة بالمنطقة على امتداد الشارع أمام بوابتنا ، كان هناك أصلاً طريق محدد تسلكه مسيرات المهرجانات ، لكن كبير الإطفائيين تكفل بترتيب تعديل هين فى المسار كل عام ، وأصبح مألوفا أن يمروا بدارنا .

فى هذا اليوم المحدد كنت أقف أمام البوابة مع قاطنى الدار الآخرين ، فتحت البوابة المزخرفة على نحو جميل بأسياخ حديدية مصاغة كأوراق الشجر على مصراعيها ، ونثر الماء بديعا على الأحجار المنحدرة خارجها ، وأخذ دوى الطبول المتردد يقترب .

عبر الضجيج المتشابك للمهرجان ، تناهى نغم ترتيلة حزين ، لم تتمايز الكلمات فى خضمه إلا تدريجيا ، مفصحة عما يمكن أن يوصف بأنه الموضوع الحق لهذه الضجة ، التى تبدو ظاهريا مجردة من المعنى ، نحيب إزاء التضافر البالغ الفجاجة للإنسانية والأبدية الذى لايمكن استدعاؤه إلا عبر فجور متشح بالدين كهذا. استطعت تدريجيا أن أميز فى خضم الكتلة المتشابكة من الأصوات الرنين المعدنى المنبعث من الأجراس المعلقة بعصا يحملها كاهن على رأس الموكب ، وزئير الطبول المجمجم ، وخليط الصيحات الإيقاعية التى يهتف بها الشباب ، الذين يرفعون المحمل المقدس . خفق قلبى على نحو خانق ، حتى ما عاد بوسعي الوقوف (من يومها والتوقع العنيف يسبب لى الكرب دائما لا الفرحة) .

كان الكاهن الذى يحمل العصا يضع على وجهه قناع ثعلب ، ثبتت العينان الذهبيتان لهذا الحيوان الغيبى نفساهما بتعمد بالغ علىّ . كأنما لتسحرانى ، ومرّ الموكب أمام عينىّ فبعث

فىّ بهجة شبيهة بالرعب ، وقبل أن أدرك ما أنا فاعل شعرت بنفسى أتشبث بأطراف تنورة من لست أدرى من نساء دارنا ، والتى كانت واقفة إلى جوارى . كنت على استعداد للهرب لدى بروز أول حجة (منذ تلك الأيام كان هذا هو موقفى الذى واجهت به الحياة دائما ، وحيال الأمور التى طال انتظارها وزانتها أحلام التوقع لايعود فى النهاية ثمة ما أفعله إلا أن ألوذ بالفرار .)

هلت وراء الكاهن ثلة من رجال الإطفاء ، يحملون على كواهلهم صندوق النذور ، وقد زانته أكاليل من القش المضفور ، ثم أقبل جمع من الأطفال ، يرفعون محملا صغيرا يتقافز فى نزق ، أخيرا اقترب محمل الموكب الرئيسى ، «الأوميكوشى» الجليل ذو اللونين الأسود والذهبى . كنا قد رأيناه من بعيد بالفعل ، العنقاء الذهبية على قمته ، تتأرجح ، وتتخايل متألقة وسط الضجيج والهياج ، مثلما طائر يطفو جيئة وذهابا فى قلب الأمواج ، فأفعمنا المشهد بضرب من الشعور الذاهل بالقلق . الآن بدا المحمل نفسه للعيان ، سادت حالة مسمومة من الهدوء الميت ، كالهواء فى خط الاستواء ، لفت وحيدة المحمل متشبثة به . بدت كالركود الحاقد ، ترتعد متوقدة فوق الأكتاف العارية للفتيان الذين يحملون «الأوميكوشى» وداخل نطاق الحبال الغليظة ذات اللونين الأحمر الصارخ والأبيض ، داخل السياج الغارق فى لونى الذهب والنبيذ

القائم ، خلف أبواب أوراق الشجر الذهبية محكمة الإغلاق ، كان هناك مكعب حجمه أربعة أقدام من الظلام المكتسي بلون القار .

هذا المكعب المكتمل من الليل الأجوف ، المتأرجح ، المتقافز ، دونما انتهاء ، جيئة وذهابا ، علوا وسفلا ، كان يهيمن فى جرأة على سمت نهار الصيف الباكر الألاق ، دونما سحابة تشوبه .

دنا المحمل أكثر فأكثر ، كان الفتية الذين يحملونه يرتدون كيمونو للصيف موحد الطراز ، والقطن الخفيف يشف عن أجسادهم كلها ، وجعلت حركاتهم المحمل يبدو وكأنه يترنح لفرط الخمار ، بدت أقدامهم وكأنها كتلة عظيمة متشابكة الأطراف ، وبدا الأمر كما لو أن عيونهم ماكانت لتقع على أشياء هذه الأرض ، كان الفتى الذى يحمل مروحة السلطة المستديرة يعدو حول أطراف المجموعة ، وهو يستحثها بصيحات مرتفعة على نحو بديع ، وبين الحين والآخر كان المحمل يميل فى جنون ، وعندئذ وبصيحات أكثر توفزا ، كان يرد على موضعه عاليا .

هنا ، وربما لأن الكبار فى عائلتى أدركوا الأمر بحدسهم ، دفعتنى يد الشخص الذى كنت متشبثا به فجأة إلى الوراء ، فعلى الرغم من أن الشباب بدوا ظاهريا وهم يسيرون

فى موكبهم تماما على نحو ماكانوا ، كمنت قوة ما فى أعماقهم تلح فى طلب منصرف لها ،.

صاح أحدهم : حذار !

ليس بوسعى القول بما أعقب ذلك ، انتزعتنى اليد ، فاندفعت أعدو هاربا عبر حديقة المدخل ، هرعت إلى الدار ، عبر الباب الجانبى .

صعدت إلى الطابق الثانى مع شخص ما ، انطلقت إلى الشرفة ، من هناك اطلعت على المشهد متقطع الأنفاس . كانوا قد تدفقوا فى هذه اللحظة كالسرب إلى حديقة المدخل رافعين محملهم الأسود .

رحت أتساءل ، حتى بعد ذلك بوقت طويل ، أية قوة أملت عليهم هذا التصرف ، لازلت لا أدرى ، كيف أمكن لهؤلاء العشرات من الشباب أن يصلوا فجأة إلى القرار فى اللحظة ذاتها ، وكأنما صدر عن ذهن واحد ، بأن يندفعوا مُقبلين عبر بوابتنا ؟

لفتهم البهجة فى غمار التدمير الوحشى الغشوم للنباتات ، كان تجمعاً للدهماء بكل معانى الكلمة . تحولت حديقة المدخل ، التى استنفدت اهتمامى بأسره منذ وقت طويل ، إلى عالم آخر ، جرى استعراض المحمل فوق كل بوصة منها ، مزقت الشجيرات

إرباً ، وديست بالأقدام . كان عسيرا عليّ كثيرا أن أقول ما الذى يجرى ، ارتطمت أمواج الضوضاء بعضها بالبعض الآخر ، بدا كما لو أن أذنيّ لطمتهما أمواج متدافعة من الصمت الجليدى والصخب العبثى . وحدث الأمر ذاته مع الألوان ، فتدافع اللون الذهبى والقرمزى ، الأرجوانى ، الأخضر ، الأصفر والأزرق القاتم ، أخذت الألوان تغلى معا ، وبدت كما لو كانت لونا واحدا يسوده اللون الذهبى حينا والقرمزى حينا آخر .

خلال الأمر كله كان هناك شىء واحد فحسب واضح بصورة تضج بالحياة ، شىء أرعبنى ، ومزقنى إربا ، فملأ قلبى بعذاب يستحيل تبريره . كان هذا الشىء هو التعبير الذى علا ملامح الفتية الذين يرفعون المحمل ، تعبيراً عن أكثر ضروب الخمار جلاءً وفحشا فى الدنيا ...

الفصل الثانى

طوال ما يزيد على العام عانيت من الإحباط الذى يقاسيه طفل قدمت له لعبة غريبة . كنت وقتها فى الثانية عشرة من عمرى.

راحت هذه اللعبة تتضخم مع كل فرصة تتاح لها ، وتومىء من طرف خفى ، مشيرة إلى أنها إذا ما استخدمت على نحو سليم ستغدو شيئاً بهيجاً تماماً ، لكن تعليمات الاستخدام لم تكن مدونة فى أى مكان ، وهكذا فإنه حينما انتزعت اللعبة المبادرة فى الرغبة بالعبث معى كان من الحتمى أن يداهمنى الذهول . غدا شعورى بالإذلال ونفاد الصبر من التفاقم ، حتى ظننت أننى أرغب فى تحطيم اللعبة ، غير أنه فى النهاية لم يبق إلا الاستسلام من جانبى للعبة العنيدة بتعبيرها عن النشوة السرية والانتظار فى سلبية لرؤية ماسيقع .

ثم فكرت فى الإصغاء بمزيد من الهدوء لرغبات اللعبة ، وحينما فعلت ذلك ألفيت أنها سرعان مايكون لها بالفعل نوقها المحدد ، الذى لايعرف إليه الخطأ سبيلاً ، أو مايمكن تسميته

بآليتها الخاصة ، غدت طبيعة ذوقها مرتبطة ، لا عبر ذكريات طفولتى فحسب وإنما عبر ذكرياتى واحدة إثر الأخرى بأشياء من قبيل الأجساد العارية للشبان الذين رأيتهم على الشاطىء فى الصيف ، فرق السباحة التى شاهدتها فى مسبح ميجى ، الشاب الذى تزوجته ابنة عمى والذى يتمتع ببشرة لوحتها الشمس ، والأبطال الجسورين للعديد من قصص المغامرات . ظننت حتى ذلك الوقت أننى مرتبط على نحو شاعرى فحسب بمثل هذه الأمور ، خالطاً على هذا النحو بين رغباتى الحسية ونسق من الجماليات .

بالمثل راحت اللعبة تندفع نحو الردى ، بحيرات الدم ، اللحم البشرى الذكورى ، لدى رؤية مشاهد المبارزات الملطخة بالدم على أغلفة مجلات قصص المغامرات ، التى كنت أستعيرها من الفتى الذى يعمل بدارنا ، صور فتية الساموراى وهو يبقرون بطونهم ، جنود أصابت منهم الطلقات مقتلاً ، فتشنجت أضراسهم ، وتقاطر الدم من خلل أكفهم ، التى قبضت على صدورهم المكسوة بالكاكى ، صور لمصارعى السومو المتصلبى العضلات ، من الدرجة الثالثة الذين لم يترهلوا بعد – لدى مرأى هذه الأشياء كانت اللعبة ترفع على نحو قاطع رأسها الفضولى (إذا لم تكن صفة «فضولى» مناسبة فيمكن تغييرها إلى «شهوانى» أو «غليم»).

حينما أدركت هذه الأمور ، بدأت فى السعى وراء اللذة العضوية عن وعى وقصد . شرعت مبادىء الاختيار والإعداد تقوم بعملها . حينما كنت أجد أن تركيب صورة ما يبدو معيبا ، كنت أبدأ أولا فى نسخها بأقلام الشمع الملون ، ثم أصلحها وفقا لما يرضينى . عندئذ تصبح صورة لاعب سيرك شاب ، هوى على ركبتيه ، وأمسك بجرح أحدثته رصاصة فى صدره ، أو لاعب يسير على الحبال سقط ، فانفلقت جمجمته ، ورقد محتضرا ، وقد غطى الدم شطرا من وجهه . غالبا ماكنت فى المدرسة أنشغل بالخوف على هذه الصور الظامئة للدم ، والتى أخفيتها فى أحد أدراج المكتبة بالدار ، وأشفق من أن يكتشفها أحد فى غيابى ، حتى أن صوت المعلم كان يحتجب عنى ، كنت أعلم أن علىّ أن أعدم تلك الصور بعد رسمها على الفور ، لكن لعبتى كانت من الارتباط بتلك الصور بحيث وجدت أنه من المستحيل إطلاقاً أن أقوم بذلك .

على هذا النحو أمضت لعبتى العنيدة أياما وشهورا عديدة دون أن تحقق حتى هدفها الثانوى ، أو ماسوف أسميه «عادتى السيئة» دع جانبا هدفها المطلق ، غرضها الرئيسى .

طرأت تغيرات عديدة فيما حولى ، فقد انشطرت العائلة ، وغادرت الدار التى ولدت بها ، وانتقلت إلى دارين منفصلين فى

الشارع نفسه ، لا تفصلهما إلا نصف كتلة من المبانى ، أقمت مع جدىَّ فى دار ، فيما استقر والداى مع أخى وأختى فى الدار الأخرى . فى هذه الفترة أرسل أبى فى مهمة رسمية خارج البلاد ، قام بجولة فى العديد من دول أوربا ، وعاد إلى الوطن ، بعد فترة ليست بالقصيرة انتقل والداى من جديد . أخيرا بلغ أبى مرحلة الحسم المتأخر فى إصراره على المطالبة باستعادتى لأقيم فى داره ، وانتهز هذه الفرصة للقيام بذلك . خضت غمار مشهد الافتراق عن جدتى ، وهو مشهد أسماه أبى «الميلودراما الحديثة» هكذا مضيت لأقيم مع أبوىَّ ، الآن انفصلت عن الدار التى يقطنها جداى ، على بعد عدة محطات للقطار الحكومى أو العربات التابعة للبلدية . ليلا ونهارا كانت جدتى تضم صورتى إلى صدرها ، تنخرط فى البكاء ، وتشتد بها أعراض المرض إذا ما انتهكت الاتفاقية التى تقضى بضرورة قيامى بقضاء ليلة كل أسبوع معها فى الثانية عشرة من عمرى كانت لى حبيبة صادقة المحبة ، فى الستين من عمرها .

سرعان ماانقل أبى إلى أوساكا ، مضى وحيدا ، أما بقيتنا فظللنا فى طوكيو .

ذات يوم ، .اهتبلت فرصة نوبة برد عارضة ألمت بى ، فحالت دون ذهابى إلى المدرسة ، جلبت بعض مجلدات من اللوحات

الفنية ، كان أبى قد حملها للوطن تذكارا لرحلاته فى الخارج ، حملتها إلى غرفتى ، حيث رحت أتصفحها بانتباه ، ابتهجت على نحو خاص لمشاهدة صور التماثيل الإغريقية ، التى احتوتها أدلة المتاحف الإيطالية العديدة ، ومن بين العديد من صور الأعمال الفذة العارية راقت لى لوحات باللونين الأبيض والأسود لعدد من هذه التماثيل ، وربما كان ذلك يرجع إلى حقيقة بسيطة هى أنه حتى من خلال الصور بدا النحت أكثر قربا من الحياة .

كانت تلك هى المرة الأولى التى أشاهد فيها هذه الكتب ، كان أبى شحيح اليد ، لكراهيته لتلويث الصور وتلطيخها بيد الأطفال . وكذلك لخشيته من أن صور النسوة العاريات التى أبدعها الفنانون العباقرة قد تستهوينى – لشد ما جانبه الصواب ! قد أخفى هذه الكتب بعيدا فى أعماق خزانة الأوانى ، ومن جانبى لم أحلم بأنها يمكن أن تكون أكثر إثارة للاهتمام من الصور التى تتضمنها مجلات قصص المغامرات .

شرعت فى تقليب الصفحات وصولا إلى نهاية أحد المجلدات . فجأة أطلت من ركن الصفحة التالية صورة ، اضطررت للاعتقاد بأنها كانت هناك راقدة فى انتظارى قابعة من أجلى .

كانت صورة للوحة القديس سباستيان للمصور جيدو رينيه ، التى تضمها مجموعة بلازو روسو فى جنوا .

تبدى جذع شجرة الإعدام الأسود المائل قليلا فى خلفية هائلة من غابة كابية ، وسماء مغيبية ، قاتمة ، ونائية ، قيد شاب بادى الوسامة عاريا إلى جذع الشجرة ، رفعت يداه المتصالبتان عاليا ، أحكم ربط السيور التى تشد راحتيه إلى الشجرة ، كان الغطاء الوحيد الذى يستر عريه هو قطعة بيضاء من نسيج خشن عقدت متهدلة حول خاصرته .

خمنت أن اللوحة تصور حتما استشهاد أحد المسيحيين ، ولكن بما أن مصورها كان عاشقا للجمال ، ينتمى إلى المدرسة الاصطفائية المستمدة من عصر النهضة ، فإن هذه اللوحة التى تصور موت قديس مسيحى كانت تحمل النكهة القوية للنزعة الوثنية . كان جسد الشاب ، الذى يمكن أن يشبه بأنتينوس ، محبوب هادريان ، الذى خلد حسنه فى النحت ، لايفصح عن أى من آثار العناء التبشيرى أو التداعى ، المألوفة فى صور القديسين الآخرين ، وبدلا من ذلك كانت هناك فحسب ميعة الصبا ، وامتد النور والبهاء والفرح .

كان عريه الأشيب ، الذى لا نظير له ، يتألق مباينا الخلفية

المغيبية . ذراعاه الرجوليان ، ذراعا رجل الحرس البريتورى الذى اعتاد ثني النشاب وتقلد السيف ، مرفوعتان فى زاوية رشيقة ، رسغاه المقيدان متصاليان فوق رأسه مباشرة ، وجهه مرتفع هونا عيناه مفتوحتان على اتساعهما ، تحدقان بهدوء عميق فى مجد السماوات . لم يكن الموت هو الذى يحوم حول صدره المتوتر ومعدته الحادة فى انكماشها وردفيه اللذين التويا من الألم قليلاً ، وإنما وهج من الفرح الكابى كالموسيقى ، ولولا السهام الغائصة برءوسها عميقا فى إبطه الأيسر وجانبه الأيمن لبدأ أقرب شبها إلى رياضى رومانى ، ينال قسطا من الراحة بعد العناء ، وقد استند إلى شجرة غسقية فى إحدى الحدائق .

كانت الأسهم تلتهم اللحم المتوفز ، العطر ، الذى يضوع شباباً ، وتوشك أن تستنفد الجثمان من داخله بألسنة من لهب معاناة ونشوة فائقتين ، لكن الدم لم يكن يشخب ، ولم يكن هناك ذلك الفيض من السهام الذى يرى في اللوحات الأخرى لاستشهاد سباستيان ، وبدلا من ذلك كان سهمان وحيدان يلقيان ظليهما الهادئين الرشيقين على رهافة جلده ، مثلما ظلى غصن يسقطان على ممر مرمرى .

لكن كل هذه التفسيرات والملاحظات وردت فيما بعد .

في ذلك اليوم ، ما إن تطلعت إلى الصورة ، حتى ارتعش كيانى كله بفرحة طاغية ، طفا دمى عالياً ، انتفخت خاصرتى كأنما غضبا ، كان الجانب الوحشى فىَّ ، الذى غدا على وشك الانفجار ، ينتظر استخدامى له فى انقاد لم يسبق له مثيل ، وهو يوبخنى لجهلى ، لاهثا فى غضب ، شرعت يداى فى غياب كامل للوعى تأتيان حركة لم تعلماها من قبل قط ، أحسست بشىء سرى مشع ينهض مسرع القدمين ليشن هجوما من داخلى ، فجأة تفجر مندفعا ، جالبا معه عربدة داخلية تحجب الرؤية ...

إنقضى بعض الوقت ، عندئذ تطلعت بمشاعر بائسة حول المكتب الذى كنت أجلس أمامه ، كانت شجرة قبقب خارج النافذة تلقى ظلاً خفيفا فوق كل شىء ، فوق المحبرة ، كتبى المدرسية ، دفاترى ، القاموس ، صورة القديس سباستيان . انتثرت بقع بيضاء غائمة ، على عنوان المرجع الذهبى الحروف ، على جانب المحبرة ، على ركن القاموس ، إنسابت بعض القطرات كسلى ، متثاقلة ، والتمع البعض الآخر على نحو كئيب ، مثل عينى سمكة ميتة ، لحسن الحظ حمت حركة انعكاسية من يدى الصورة ، وأنقذت الكتاب من التلوث .

كانت تلك هى المرة الأولى التى أقذف فيها ، وكذلك البداية المرتبكة وغير المقصودة بالمرة لعادتى السيئة .

(من الصدف المثيرة للاهتمام أن هيرشفيلد يدرج صور القديس سباستيان في المرتبة الأولى من أنواع الأعمال الفنية التي يجد فيها اللواطي بهجة خاصة ، وتؤدي ملاحظة هيرشفيلد هذه في يسر إلى الحدس بأنه في الغالبية الكاسحة من حالات اللواط ، بصفة خاصة في اللواط الفطري ، يمتزج دافع اللواط والدافع السادي معاً ، على نحو لا يمكن فصله) .

يقال تقليديا إن القديس سباستيان ولد في حوالي منتصف القرن الثالث للميلاد ، غدا قائداً في الحرس البريتوري ، وأنهى حياته القصيرة ذات الثلاثين عاما من الغرابة بالاستشهاد ، ويقال إنه مات في عام ٢٨٨ خلال حكم الإمبراطور ديوقليانوس . كان ديوقليانوس رجلا عصاميا ، عرك الحياة ، وحظي بالإعجاب لنزعته لعمل الخير ، لكن مكسيميان شريك الإمبراطور كان يمقت المسيحية ، وحكم بالإعدام على مكسيميليانوس الشاب النوميري لرفضه باسم النزعة السلمية المسيحية أداء مقتضيات الخدمة العسكرية ، وبالمثل جرى إعدام مارسيلوس القنطوري للولاء الديني ذاته . كانت تلك إذن هي الخلفية التي في ضوئها يصبح استشهاد القديس سباستيان أمرا قابلا للفهم .

اعتنق سباستيان المسيحية سراً ، واستغل موقعه كقائد في الحرس البريتوري لمواساة المسيحيين المودعين بالسجون ، وأدخل

العديد من الرومان فى الدين الجديد ، ومن بينهم عمدة روما ، وحينما افتضح أمر هذه الأنشطة حكم عليه بالموت ، رشق بسهام لا حصر لها ، وترك ليلفظ أنفاسه ، لكن أرملة ورعة كانت قد أقبلت لتواريه التراب ، اكتشفت أن بدنه لايزال دافئا ، فعالجته حتى دلف عائدا إلى الحياة غير أنه تحدى على الفور الإمبراطور مسفها آلهته ، وفى هذه المرة ضرب بالهراوات حتى الموت .

قد تكون الخطوط العريضة لهذه الأسطورة صحيحة حقا ، فمن المعروف يقينا أن مثل أحداث الاستشهاد هذه قد وقعت حقا ، أما فيما يتعلق بالتشكك فى أنه مامن إنسان يمكن أن يصاب بمثل هذا العدد الكبير من جراح السهام ثم يرد إلى الحياة ألا يمكن أن يكون ذلك من قبيل الإضافة البديعة اللاحقة واستخداما مألوفا لموضوعة البعث استجابة لتلهف البشرية إلى المعجزات ؟ .

ولرغبتى فى أن تفهم نشوتى بين يدى الأسطورة ، أمام اللوحة ، بمزيد من الوضوح باعتبارها الشىء الحسى الوحشى الذى كانت عليه ، فإننى أثبت هنا المقطوعة التالية التى لم تنته ، والتى دبجتها بعد ذلك بسنوات :

القديس سباستيان – قصيدة نثرية .

ذات مرة ، اختلست النظر من نافذة قاعة للدرس إلى

شجرة وسط تتمايل فى مهب الريح ، فيما كنت أتطلع إليها ، شرع قلبى يخفق راعداً ، كانت شجرة ذات بهاء مذهل ، تنتصب فوق المرجة فى زاوية قائمة ، تلفها الاستدارة ، يستند الشعور بخضرتها الفاغمة إلى أغصانها العديدة المتماوجة عاليا والمنسدلة على الجوانب فى اتساق متوازن لا يحظى به إلا حامل شموع متعدد الأفرع ، وتحت اخضرارها يبرز جذع قوى مثل قاعدة أبنوسية . شمخت هناك ، تلك الشجرة ، مكتملة ، رائعة البدن ، من غير أن تفقد شيئا من رشاقة الطبيعة وعفويتها ، ملتزمة صمتا جليلا ، كأنها خلقت نفسها ، ربما كانت قطعة موسيقية ، قطعة من موسيقى الحجرة وضعها موسيقار ألمانى ، موسيقى تبعث نشوة دينية هادئة ، حتى إنا لايمكن إلا أن توصف بأنها قدسية تحفل بالجلال وبالحنين ، اللذين نجدهما فى أنماط سجاد الحائط الرائع .

هكذا كان للتماثل بين شكل الشجرة وأصوات الموسيقى معنى بالنسبة لى . لا عجب إذن فى أنهما حينما هاجمانى ، معا وقد تزايدت قوتهما من جراء هذا التحالف ، غدا انفعالى الغامض المستعصى على الوصف أقرب لا إلى الغنائية وإنما إلى ذلك الخمار الرهيب الذى نجده فى تزاوج الدين والموسيقى .

فجأة تساءلت فى قرارة فؤادى : « أليست تلك هى الشجرة

ذاتها ... الشجرة التى قيد القديس إليها ويداه مغلولتان خلفه ، على جذعها سال دمه مثل قطرات غب المطر ؟ أليست تلك هى الشجرة الرومانية التى احتضر فوقها متوهجا فى عناء الموت الأخير مع التفتت العنيف للحمه الغض على اللحاء كاعترافه الأخير بالمتعة الدنيوية بأسرها والألم الحاضر جميعه ؟

يقال فى الحوليات التقليدية إنه عقب تتويج ديوقليانوس ، وفيما كان يحلم بسلطة مطلقة ، كطائر لا يعوق تحليقه شىء ، كان هناك قائد شاب فى الحرس البريتورى ، ألقى القبض عليه ، واتهم بعبادة رب محظور . قائداً شابا كان ، أوتى جسما لدنا ، يذكر المرء بالعبد المشرقى ذائع الصيت الذى عشقه هادريان ، له عينا متآمر، ساجيتان مثلما البحر ، كان فاتن الصلف ، يضع على خوذته سوسنة بيضاء ، تقدمها له كل صباح عذارى المدينة ، تتدلى فى رشاقة على شعره الرجولى السبط ، فيما هو ينال قسطا من الراحة من عناء مبارياته الوحشية ، فتلوح مثل مؤخرة عنق بجعة تماما .

لم يعرف أحد موطنه أو من أين قدم ، لكن كل من رأوه خالجهم الشعور بأن هذا الشاب ، الذى يتمتع بجسد عبد وملامح أمير ، هو عابر سبيل ، سرعان مايمضى بعيدا ، بدا لهم هذا الشاب «الانداميونى» بدويا يقود قطعانه ، وأنه هو بعينه المختار

للعثور على مرعى أكثف خضرة من كل المراعى الأخرى .

كانت هناك عذارى مجددا يتعلقن باليقين حول مجيئه من البحر ، لأنه فى أغوار صدره كان يمكن الإصغاء إلى تصخاب البحر ، ولأنه كان يتأرجح فى بؤبؤة الأفق الغامض والخالد الذى يتركه البحر تذكارا غائرا فى عيون أولئك الذين يولدون على شواطئه ، ويجبرون على الرحيل بعيدا عنه ، ولأن تنهداته كانت متقدة ، شأن نسائم المد فى سمت الصيف ، تضوع برائحة أعشاب البحر المسجاة على الشاطىء .

ذلك سباستيان ، القائد الشاب فى الحرس البريتورى ، أترى كان هناك شىء فى بهاء حسنه قدر له أن يلقى الردى ؟ ألم تشتم نساء روما الخشنات اللاتى غذيت حواسهن على مذاق الخمر المعتقة التى تتعتع العظام وعبق شواء اللحم الذى يتقاطر بحمرة الدم – قدره معتم النجوم سريعا والذى كان يجهله فعشقنه لهذا السبب ؟ كان دمه يتدفق بايقاع أكثر وحشية من المألوف داخل لحمه الأبيض باحثا عن منطلق ينسكب منه حينما يتمزق ذلك اللحم فى القريب . كيف أمكن للنسوة ألا يصغين للرغبات العاصفة لدم كهذا ؟

لم يكن قدره مما يوضع موضع الرثاء . لم يكن مما يمكن

أن يرثى له قط ، وإنما كان بالأحرى شامخا ومأساويا ، قدرا يمكن أن يوصف بالتوهج .

حينما يتأمل المرء الأمر جيدا يبدو أنه من المحتمل فى العديد من المرات أنه حتى فى غمار قبلة شائقة من المحتم أن طعم معاناة الموت المسبقة قد غضن جبينه بظل عابر من الألم .

ولابد أنه كذلك قد تنبأ ، وإن يكن على نحو غامض ، بأن ماينتظره على الدرب لايقل عن الاستشهاد ، وأن هذا الميسم الذى دمغه به القدر كان على وجه الدقة أشعار مباينته لكل رجال الأرض العاديين .

الآن ، فى ذلك الصباح بعينه ، أزاح سباستيان أغطية فراشه ، وثب منه مع انبلاج النهار ، تحت وقر الواجبات العسكرية ثمة حلم راوده عند الفجر ، غربان مشئومة كالنذير تتجمع فى صدره ، تغطى فمه بأجنحة مصطفقة ، وما اختفت بعد من وسادته . لكن الفراش الخشن الذى يأوى إليه كل ليلة كان يضوع بعبق أعشاب البحر المسجاة على الشاطىء ، يقينا إذن أن مثل هذا العبق سيقوده مراوغا إلى أحلام البحر والآفاق الفسيحة .

فيما هو يقف إلى جوار النافذة ، ويسبغ عليه درعه المصلصل ، راح ينظر عبر الطريق إلى معبد تحيطه كرمة ، فى

السماء فوقه لمح النجوم المتناثرة تغور بعيدا ، مجموعة نجوم تدعى «المازاروث» حدق فى ذلك المعبد الوثنى البديع وتحت الاستدارة المراوغة لحاجبيه التمعت نظرة عميقة قريبة من المعاناة وتتناسب مع جماله استحضر اسم الله الواحد ورتل فى رقة بعض الآيات الجليلة من النصوص المقدسة ، عندها ، وكأنما تضاعفت رهافة ترتيلته آلاف المرات وترددت فى نغم جليل ، سمع أنينا عاتيا أهل ، دونما شك ، من ذلك المعبد البغيض ، من تلك الصفوف من الأعمدة التى تشق عنان السماء المرصعة بالنجوم . كان صوتا كذلك الذى يصدر عن ركام يتصدع فيتناثر بددا مدويا بإزاء القبة السماوية التى وشتها النجيمات .

ابتسم ، خفض عينيه إلى ما دون نافذته ، ثمة جمع من العذارى يصّاعد سرا إلى حجراته لترتيل صلوات الصباح ، كعادتهن تحت جنح الظلام قبيل الفجر ، وكل عذراء تحمل فى يدها سوسنة وسنى لاتزال ...

كان ذلك فى وقت متقدم من شتاء عامى الثانى فى المدرسة المتوسطة كنا وقتها قد اعتدنا السراويل الطويلة وعلى مناداة بعضنا البعض بالأسماء الأولى دونما ألقاب (فى المدرسة الابتدائية لم يكن يسمح لنا أبدا بأن نترك سيقاننا فيما دون سراويلنا القصيرة عارية حتى فى سمت الصيف ، هكذا فإن

فرحتنا كانت مضاعفة لدى ارتدائنا للسراويل الطويلة ، حينما علمنا أننا لن نضطر مرة أخرى إلى تجشم مشقة أربطة الجوارب كذلك اضطررنا فى المدرسة الابتدائية إلى استخدام الصيغة الرسمية للخطاب ، حينما ينادى أحدنا الآخر باسمه) اعتدنا أيضا عادة رائعة أخرى ، هى السخرية من مدرستنا ، وأن يقدم لنا الشاى ونحن واقفون فى مشرب المدرسة ، وأن نلهو بألعاب الأدغال ، التى نمضى عدوا خلالها فى وسط أشجار المدرسة ، واعتدنا حياة مهجع المدرسة . شاركت فى كافة هذه الألوان عدا حياة المهجع ، فقد احتج أبواى دائما بصحتى الهشة لاستثنائى من القاعدة التى تقتضى من كل طالب أن يقيم فى القسم الداخلى للمدرسة عاما أو عامين ، خلال الدراسة بالمدرسة المتوسطة ، ومرة أخرى لم يتجاوز السبب الرئيسى الذى دفعهما لذلك الحيلولة دون تعلمى «الأمور السيئة» .

كان عدد طلاب الدراسة الخارجية قليلا . وفى الفصل الدراسى الأخير من عامنا الثانى انضم قادم جديد إلى جماعتنا الصغيرة ، كان هذا القادم هو «أومى» ، كان قد طرد من المدرسة الداخلية بسبب بعض السلوكيات السيئة . لم أكن حتى ذلك الوقت قد أبديت اكتراثا به ، ولكن حينما دمغه طرده بهذا الميسم ، الذى لا تخطئه العين ، للجنوح ،

ألفيت فجأة من المتعذر عليّ أن أحوّل ناظريّ عنه .

ذات يوم أقبل صديق بدين سمح الخلق يعدو نحوى ، ضاحكا حتى بدت غمازتاه ، علمت من هذه المؤشرات المألوفة أنه قد أطلع على معلومات سرية ،.

قال : لديّ ما أحدثك به !

ابتعدت عن أنابيب التدفئة ، خرجت إلى الممر مع صديقى الطيب ، إنحنينا على نافذة تطل على فناء الرماية الذى اكتسحته الرياح . كانت تلك النافذة هى ملتقانا لهتك الأسرار .

شرع صديقى فى الحديث : طيب ، إن أومى ...

ثم توقف ، إحمر خجلا ، كأنما استبد الحرج به ، فحال دون مواصلته الحديث (ذات مرة ، وفى الصف الخامس من المدرسة الابتدائية ، حينما كنا جميعا نتحدث حول «ذلك» إندفع هذا الفتى فناقضنا كلية بملاحظة هائلة : «الأمر كله كذبة كاملة ، أعلم تماما أن الناس لايقترفون شيئا كهذا» وفى مرة أخرى ، ولدى سماعه أن والد أحد الأصدقاء مصاب بالشلل الرعاش ، حذرنى من أن هذا المرض معد وأنه من الخير لى ألا أقترب كثيرا من ذلك الصديق) .

– إيه ، ما الذى حط على أومى ؟

على الرغم من أننى كنت لا أزال استخدم صيغ الخطاب الانثوية المهذبة فى الحديث بالدار ، فإننى شرعت خلال وجودى بالمدرسة فى الحديث بوقاحة ، مثل الفتية الآخرين .

- إنها الحقيقة ، ذلك الفتى أومى ، طيب ، يقولون إن له بالفعل العديد من الفتيات ، هذا هو الأمر !

كان من اليسير تصديق ذلك ، فلابد أن أومى كان أكبر منا بسنوات عديدة ، بعد أن أخفق فى الانتقال إلى الصف الأعلى مرتين أو ثلاثا ، كان يتجاوزنا جميعا فى وثاقة بنيته ، وفى استدارات وجهه كان بالوسع رؤية نضج متميز يفوقنا جميعا ، تميز بطريقة فطرية شامخة فى السخرية غير المبررة . لم يكن ثمة شىء واحد لم يجد أنه يستحق الازدراء ، بالنسبة لنا لم يكن ثمة تغاير فى حقيقة أن الطالب المتفوق هو نفسه ، وأن المدرس هو ذاته ، وأن رجل الشرطة وطالب الجامعة والموظف لايتجاوزون ماهم عليه ، وبالطريقة عينها كان أومى بالنسبة لنا هو ببساطة أومى ، وكان من المستحيل الهرب من عينيه المفعمتين ازدراء وضحكته المثقلة بالسخرية .

قلت : أحقا ؟

لسبب مجهول ، ظللت لبعض الوقت أمعن التفكير فى يدى أومى الماهرتين ، وهما تنظفان البنادق ، التى نستخدمها فى التدريب العسكرى . تذكرت مظهره الأنيق كقائد جماعة والطالب

الأثير لدى القائم بالتدريب العسكرى ومدرب التربية البدنية فقط .

– لذلك ... ذلك هو السبب فى أن ...

قالها صديقى ، ندت عنه ضحكة مكبوتة ، بذيئة ، لايمكن إلا لفتية المدرسة المتوسطة فهمهما ، وأضاف :

– طيب ، يقولون إن الشىء الذى له – أنت تفهم ما أعنى – فظيع الضخامة ، ماعليك فى المرة القادمة التى نلعب فيها لعبة «القذر» إلا أن تتحسس وتتبين ، وسيبرهن ذلك على الأمر .

كانت لعبة «القذر» رياضة تقليدية فى مدرستنا ، تتفشى دائما بين الفتية خلال عامهم الأول والثانى ، وكما هو الحال مع أى أسلوب مجنون لتزجية الوقت ، كانت مرضا مقيتا أكثر مما هى تسلية . يقف فتى ونسميه «أ» دون أن يتخذ الحذر لنفسه ، فيلاحظ ذلك فتى آخر وليكن «ب» . فينقض من الجانب فى تدقيق على الهدف ، ويقتنص بقبضته ما يمتد بين فخذى أ،. فإذا كللت القبضة بالنجاح ، عندئذ يتراجع ب . فائزا إلى مبعدة ، ويبدأ فى الصياح :

– أوه ، إنه ضخم !

أيا كان الدافع وراء هذه اللعبة ، فإن الهدف الوحيد منها ، فيما يبدو ، هو مشهد الضحية فى شكله الفكه ، وهو يسقط كتبه المدرسية ، أو أى شىء آخر يحمله . ويستخدم كلتا يديه لحماية النقطة التى تتعرض للهجوم . كان الفتية يكتشفون بالفعل خجلهم

فى غمار هذه اللعبة وقد تعرى فى غضون ضحكهم ، عندئذ ومن قلب ضحك أكثر دويا يحققون الغبطة فى السخرية من خجلهم المشترك . متجسدا فى الخدين المضرجين لهذه الضحية .

كان الضحية يصيح ، وكأنما بترتيب مسبق :

– أوه ، ب . هذا . إنه قذر !

كان أومى فى مجاله الملائم وهو يؤدى هذه اللعبة ، إنتهت هجماته ، دائما على وجه التقريب ، بنجاح سريع ، الأمر الذى يتيح المجال للتساؤل عما إذا كان الفتية لايتوقون إلى أن يهاجمهم أومى ، بالمقابل كان ضحاياه يسعون فى دأب للانتقام ، لكن أيا من انقضاضاتهم عليه لم يقدر لها النجاح ، فقد كان يسير دائما وإحدى يديه فى جيبه ، وفى اللحظة التى يتعرض فيها لكمين ، كان يشكل فى التو درعا مزدوجا من يده القابضة فى جيبه ويده المطلقة السراح .

كانت هذه الكلمات التى ندت عن صديقى بمثابة مخصب صب على العشب السام لفكرة انغرست غائرة فى أعماقى . كنت حتى هذه اللحظة قد شاركت فى ألعاب القذر بمشاعر ساذجة ، تماما كمشاعر الفتية الآخرين ، لكن كلمات صديقى جلبت فيما يبدو «عادتى السيئة» .

تلك الحياة المنعزلة التى أبقيتها دونما وعى منفصلة تماما – إلى مجال علاقة لا يمكن فصلها بهذه اللعبة ، بحياتى الجماعية تلك . تأكد استقرار مثل هذا الارتباط فى ذهنى من خلال حقيقة أن كلماته أصبحت فجأة شئت أم أبيت «تحسس وتبين» مشحونة بأهمية خاصة بالنسبة لى ، أهمية لم يقدر أبدا لأى من أصدقائى الأبرياء أن يتفهمها .

منذ ذلك الوقت لم أعد أشارك فى لعبة القذر . شعرت بالخوف من اللحظة التى قد أهاجم فيها أومى ، بل وبمزيد من الخوف من اللحظة التى قد يهاجمنى فيها أومى . كنت يقظا دائما وحيثما تلوح أمارات اندلاع اللعبة – كوقوع شغب أو تمرد ، وهما ماكان يثوران لأكثر الأحداث عشوائية – كنت أتنحى جانبا ، وتنصب عيناى على أومى من مسافة آمنة .

فى الحق أن تأثير أومى قد بدأ بالفعل يغوينا ، حتى قبل أن ندرك ذلك ، فعلى سبيل المثال كان هناك موضوع الجوارب . فى تلك الأيام كان صدى نظام تعليمى يستهدف تخريج جنود قد بلغ مدرستنا بالفعل ، تم من جديد إحياء الفكرة التى طرحها الجنرال اينوكى على فراش موته وقدمت للاستهلاك «كن بسيطا ورجوليا» . كانت الأشياء المنتمية إلى نوعية اللفاعات والجوارب المبهرجة من قبيل المحظورات ، بل كانت أية لفاعة من أى نوع تثير الضيق ، وسرت القاعدة القائلة بأن القمصان ينبغى أن تكون

بيضاء والجوارب سوداء أو على الأقل ذات لون قاتم . كان أومى وحده هو الذى يحرص على أن تكون له لفاعة حريرية بيضاء وجوارب جريئة المظهر .

تمتع هذا المتحدى الأول للمحرمات بمهارة فذة فى التمويه على شره بالاسم الخلاب للتمرد ، وعبر تجربته الخاصة اكتشف ضعف الفتية ازاء مفاتن التمرد وأمام المدرب العسكرى - ذلك الجلف الريفى الذى صعد إلى مرتبة الضابط دون دراسة والذى كان صديقا حميما لأومى ، أو بالأحرى تابعه فيما بدا - كان أومى ينهمك فى إحكام تثبيت لفاعته حول عنقه وإظهار بطاقات صدارته المذهبة على الطريقة النابوليونية .

غير أن تمرد الجماهير العمياء لم يتجاوز ، كما هو الحال دائما التقليد الهزيل ، وفى غمار تطلعنا إلى تجنب المخاطر التى يقتضيها التمرد وتذوق مباهجه وحدها ، لم نسط من نموذج أومى الجرىء إلا علي جواربه ، وفى هذا المثال كنت بدورى واحداً من القطيع .

لدى وصولنا فى الصباح إلى المدرسة ، كنا نسترسل فى ثرثرة صاخبة بالفصول ، قبل أن تبدأ الدروس . مقتعدين القمطرات لا الكراسى ، وكل من يلج الفصول مرتديا جوارب من

طراز جديد كان يمعن فى التظاهر رافعا ثنيتى سراويله فيما هو يقتعد القمطر ، وفى الحال ينال مكافأته بصرخات الإعجاب الحادة :

- أوه ! جوارب زاهية !

لم تتضمن قائمة مدائحنا ما يتجاوز كلمة زاهية ، وما كان أومى يعمد للتظاهر إلا فى اللحظة الأخيرة ، قبيل تشكيل الصفوف ، ولكن فى اللحظة التى تقول فيها : «زاهية» ترتسم صورة ذهبية لنظرته الفخور متصاعدة أمامنا جميعاً متحدثا ومستمعين .

ذات صباح أعقب سقوط الجليد ، مضيت إلى المدرسة مبكراً للغاية ، كان صديق قد حدثنى مساء البارحة هاتفياً ، قائلا إن الصباح التالى سيشهد مشاحنة عابثة بكرات الثلج ، ولميلى بطبيعتى إلى اليقظة عشية أى حدث أتوقّ إليه ، لم أكد أفتح عينى صباح اليوم التالى مبكراً ، حتى انطلقت إلى المدرسة دونما اكتراث بالوقت .

لم يكد الجليد يرتفع عن وجه حذائى . بعد قليل . وفيما رحت أطل إلى المدينة من نافذة القطار المرتفع ، بدا مشهد الجليد، الذى لم تمسه بعد أشعة الشمس الناهضة من خدرها ، مثيراً

للاكتئاب ، أكثر مما يعكس البهاء . لاح الجليد مثل أربطة قذرة تشد جروحا ناغرة فى جسد المدينة ، وتحجب الجراح البليغة ، المكونة من الشوارع العشوائية والحوارى الملتوية والأفنية والبقع المتناثرة للأرض العارية ، التى تشكل الجمال الوحيد الذى يمكن العثور عليه فى بانوراما مدننا .

حينما أوشك القطار ، الذى كان خاوياً على وجه التقريب ، على الاقتراب من المحطة القريبة من مدرستى ، رأيت الشمس ترتفع فيما وراء المنطقة الصناعية ، فجأة غدا المشهد مبهجا ، مشرقا . الآن تكأكأت أعمدة المداخن المرتفعة كالنذير والأسقف الأردوازية اللون ، فى ارتفاعها وانخفاضها المثير للملل ، خلف الضحك الصاخب الذى انبعث عن قناع الجليد المتألق . مثل هذه الطبيعة الملتفة بالجليد غالباً ما تصبح الساحة المأساوية للشغب أو الثورة ، بل أن وجوه المارة التى بدت سقيمة فى انعكاس الجليد ذكرتنى على نحو ما بالمتآمرين .

لدى هبوطى من القطار فى المحطة أمام المدرسة ، كان الجليد يذوب بالفعل ، واستطعت سماع الماء ينسكب من سقف شركة الشحن القريبة . لم أستطع التخلص من قبضة توهم أن الأشراق هو الذى ينسكب . كانت شظايا مشعة ألاقة منه تلقى نفسها منتحرة فى مستنقع الرصيف الزائف ، فتلطخها جميعا

أوحال أحذية المارة . وفيما كنت أسير تحت الطنف ألقت شظية من الجليد بنفسها خطأ على قفاى ...

لم يكن ثمة داخل بوابات المدرسة أثر لقدم واحدة على الجليد . وغرفة الحارس محكمة الإغلاق ، لكن الحجرات الأخرى كانت مفتوحة .

فتحت نافذة فصل الصف الثانى ، وكانت في الطابق الأرضى ، تطلعت إلي الجليد في الغيضة الواقعة وراء المدرسة . استطعت أن ألمح آثار أقدام كبيرة ، فى الممر المفضى من البوابة الخلفية إلي منحدر الغيضة فالبناء الذى كنت فيه ، قدمت الآثار على امتداد الممر ، واستمرت إلي بقعة تقع مباشرة تحت النافذة التى أطللت منها . ثم عادت فاختفت خلف مبنى العلوم ، الذى يمكن رؤيته بزاوية حادة إلي اليسار .

كان أحدهم قد جاء بالفعل . بدا جلياً أنه أرتقى الممر من البوابة الخلفية ، أطل على الفصل عبر النافذة ، ولما رأى ألا أحد هناك ، مضى وحيداً خلف مبنى العلوم . قلة من طلاب النهار هم الذين يلجون المدرسة عن طريق البوابة الخلفية ، وقد شاع أن أومى الذى كان واحداً من تلك القلة كان يجىء كل صباح من دار إحدى النسوة . لكنه ما كان يظهر إلا فى اللحظة الأخيرة قبل

تشكيل الصفوف . مع ذلك لم أستطع تصور أن أحداً غيره قد يخلف آثار الأقدام تلك ، وأقتنعت بأنها كانت آثاره بالحكم على ضخامة حجمها .

انحنيت خارج النافذة ، دققت النظر ، لمحت لون التربة الحديثة السوداء فى آثار الأقدام ، الأمر الذى جعل الآثار تبدو حازمة وقوية ، جذبتنى قوة يعجز عنها الوصف نحو آثار الحذاء تلك ، شعرت بأننى أود لو ألقيت نفسى مندفعاً برأسى عبر النافذة لأدفن وجهى فيها ، لكن أعصابى البطيئة التحرك حمتنى كالمعتاد من نزوتى الفجائية ، وبدلاً من الانقضاض نحو النافذة ، وضعت حقيبتى المدرسية على قمطر ، عدت وئيداً إلى قاعدة النافذة . لم تكد أزرار سترة ردائى المدرسى تمس أحجار عتبة النافذة حتى غدت كأطراف الخناجر بازاء ضلوعى الهشة ، فمجت ألماً ممتزجاً بضرب من العنوبة الأسيانة . بعد ما قفزت من النافذة إلى الجليد ظل الألم الخفيف باقياً كدافع مبهج ، فغمرنى بانفعال المغامرة الراعش . ثبت حذائى المطاط بعناية فوق آثار الأقدام .

كانت الآثار قد بدت ضخمة تماماً ، لكننى الآن وجدت أنها فى حجم آثار أقدامى نفسها على وجه التقريب ، لم أضع فى أعتبارى أن الشخص ربما كان ينتعل حذاء مطاطاً فوق حذائه العادى مثلى ، على نحو ما كان شائعاً بيننا فى تلك الأيام ، الآن

وقد خطرت لى هذه الفكرة ، قررت أن آثار الأقدام ليست من الضخامة بحيث تكون آثار أومى .

رغم ذلك ، ومع شعورى القلق بأننى سأصاب بخيبة أمل فى توقى الحميم إلى العثور على أومى وراء مبنى العلوم ، كنت لا أزال منجرفاً بشعور قاهر مع فكرة إقتفاء الآثار الداكنة ، ربما فى تلك الوهلة لم يعد الأمل فى العثور على أومى هو وحده الذى يدفعنى ، وإنما تملكنى ، لدى مرأى الأحجية المنتهكة ، شعور متضارب ملؤه لحنين والرغبة فى الانتقام ، إزاء الشخص الذى جاء قبلى وترك آثار أقدامه على الجليد .

بأنفاس عصية الإلتقاط ، شرعت فى تتبع الآثار .

مضيت ، كأننى أسير على درج ، أنقل قدمى من أثر إلى آخر ، راحت حواف الآثار تكشف مرة عن تربة سوداء متألقة ، وأخرى عن عشب هالك ، وثالثة عن جليد خالطه الطين ومرة أخيرة عن أحجار مـهدة ، فجأة اكتشفت أننى دونما وعى غدوت أمشى بخطى عملاقة ، تحاكى خطى أومى .

فى غمار اقتفائى للآثار حتى مبنى العلوم ، عبرت الظل المتطاول ، الذى يلقيه المبنى على الجليد ، ثم واصلت المسيرة إلى التل المطل على مضمار الألعاب الرياضية الرحب . لم يكن بالوسع

تمييز الجزء الناقص من المضمار الممتد لمسافة ثلاثمائة متر من الأرض المتموجة التى يلتف حولها ، وذلك بسبب عباءة الجليد البراقة التى غطت كل شىء ، وفى جانب من الميدان انتصبت شجرتا زيلكوفا عظيمتان ، إحداهما قرب الأخرى ، وقد تطاولت ظلالهما تحت شمس الصباح ، وترامت عبر الجليد ، مضفية المعنى على المشهد ، وطارحة النقص الهانىء ، الذى تشوب الطبيعة العظمة دائما به . كانت الشجرتان الشبيهتان بأشجار الدردار تتسامقان برقة مطاطية فى سماء الشتاء الزرقاء ، فى انعكاس الجليد من أسفل ، فى أشعة شمس البكرة الواهنة ، وبين الفينة والأخرى راح بعض الثلج ينزلق مثلما التبر ، من الزوايا التى شكلها لقاء الأغصان العارية من الأوراق والصارمة فى امتدادها مع جذعى الشجرتين . بدت قمم أسقف دورات مياه الفتية المصطفة وراء ميدان الألعاب الرياضية وغيضة الأشجار الواقعة خلفها ساكنة فى رقادها . ران صمت بالغ العمق على كل شىء ، حتى بدا الانزلاق الصامت للجليد وكأن صداه يتردد عالياً ويرف بعيداً .

لم أستطع لبرهة أن أرى شيئا فى هذا الامتداد من الوهج.

كان المشهد الجليدى على نحو ما يحاكى آثاراً كشفت حديثاً لإحدى القلاع .

سبح خداع البصر هذا فى الضياء والجلال عينهما اللذين لايوجدان إلا فى آثار القلاع العتيقة . هناك ، فى ركن من أركان الآثار ، وفى الجليد الممتد على المضمار البالغ عرضه خمسة أمتار تقريباً رسمت حروف لاتينية ضخمة ، كان أدناها إلىّ دائرة ، هى حرف أو ، تلاها حرف إم ، وأعقبه حرف ثالث كان لايزال تحت الكتابة ، حرف آى سامق وغليظ .

كانت الكلمة أومى ، وصلت بى آثار الأقدام التى اقتفيتها إلى أو ، ومن الأو إلى الإم ، وأخيراً وصلت إلى شخص أومى نفسه ، كان عندئذ يجر حذاءه المطاطى عبر الجليد لينهى حرف الأى ، محدقاً إلى أسفل من فوق ملفعته البيضاء ، ويداه منغرستان فى جيبى معطفه . تطاول ظله متحدياً على الجليد ، موازياً لظلى شجرتى الزيلكوفا فى الميدان .

اشتعلت وجنتاى ناراً ، صنعت كرة فى يدى الغارقتين فى قفازيهما ، وألقيتها عليه ، سقطت دون أن تناله .

عندئذ كان قد انتهى من كتابة حرف الآى ، ونظر ، ربما بالصدفة ، نحوى .

صحت : مرحباً !

رغم خشيتى من أن تكون إستجابة أومى الوحيدة هى

استجابة مفعمة بالاستياء ، إلا أن عاطفة تستعصى على الوصف كانت تدفعنى ، ولم أكد أطلق صيحتى ، حتى ألفيت نفسى أعدو هابطاً المنحدر نحوه ، وفيما كنت أمضى مسرعاً أهلَّ علىَّ صوت كان أبعد مما أحلم به ، صيحة ودودة منه ، تضخمها قوته :

– مرحباً ، لا تطىء الحروف !

بدا على وجه اليقين شخصاً مختلفاً هذا الصباح . كان كقاعدة عامة لايؤدى واجباته المنزلية حتى حين يمضى إلى الدار ، وإنما يخلف كتبه فى قمطره ، ويحضر إلى المدرسة فى الصباحات وقد دس كلتا يديه فى جيبى معطفه ، دون أن يتاح له من الوقت إلا ما ينزع فيه معطفه ببراعة ، ويندس فى ذيل الصف المدرسى . ياله من تغير اليوم ! من المحتم أنه لم يكن يقطع الوقت وحيداً منذ الصباح الباكر فحسب ، وإنما هو الآن يرحب بى بابتسامته الفريدة ، الودودة والخشنة فى آن واحد ، وهو الذى عاملنى دائماً كأننى طفل يتدنى عن مستوى الازدراء . لكم طال حنينى إلى هذه البسمة ، ولمعة تلك الأسنان البيضاء الفتية !

لكننى حينما دنوت بما يكفى لمشاهدة وجهه المبتسم عن كثب ، فقد قلبى انفعاله الذى توهج فى اللحظة السابقة التى صحت فيها : مرحبا ! الآن ، فجأة أصابنى الحياء بالشلل ، جمدنى الإدراك الخاطف لكون أومى ، فى قرارة فؤاده ، شخصا تستبد به الوحدة ، ولربما تكلف إبتسامته ليحجب النقطة الضعيفة

فى درعه السابغ ، التى تصادف أن فهمتها ، لكن تلك الحقيقة لم تجرحنى بقدر ما أضاءت الصورة التى كنت أرسمها له .

فى اللحظة التى رأيت فيها تلك الأومى مرسومة على الجليد فهمت ربما بصورة نصف واعية كافة أركان وزوايا وحدته المنعزلة أدركت كذلك الدافع الحقيقى ، الذى ربما لم يتفهمه أومى نفسه بجلاء ، والذى دفعه إلى المجىء مبكراً على هذا النحو فى الصباح إلى المدرسة .. ولو أن معبودى ركع ذهنياً أمامى ، وقدم لى عذراً من قبيل : «أقبلت مبكرا لشهود الشجار بالجليد» لكان من المحقق أننى سأفقد من داخلى شيئاً يتجاوز فى أهميته الكبرياء التى سيفقدها ، وبالنظر لشعورى بأن دورى حان للحديث ، حاولت فى عصبية التفكير فيما يمكن أن أقوله .

أخيرا قلت :

– سينشب شجار بالثلج اليوم ، أليس كذلك ؟ ظننت أن السماء ستمطر المزيد من الجليد .

– إحــم !

علا تعبير قوامه اللامبالاة المفتعلة ملامحه . تصلب النمط الخارجى القوى لفكه مجدداً منعكساً فى خديه ، وبعث ضرباً من المقت الممتزج بالشفقة نحوى فى داخله ، كان من الجلى أنه يبذل

جهداً ليعدنى طفلاً ، مرة أخرى شرعت عيناه تلمعان بوقاحة . ومن الضرورى أنه كان شاكراً لى إلى حد ما عدم طرح سؤال واحد عن أحرفه التى رسمها على الجليد . فتنت بالجهود التى يبذلها لقهر شعوره بالعرفان .

قال : إحم ! أكره لبس قفازات الأطفال .

- لكن الكبار يلبسون قفازات صوفية كهذه .

- يا للمسكين ، أراهن أنك لاتعرف حتى ملمس القفازات الجلدية إليك .. فجأة دفع بقفازيه الجلديين المتقاطرين ثلجا فى وجنتى .

ابتعدت مراوغاً . فى داخلى شب لهب شعور شهوانى بدائى ، فدمغ وجنتى بميسمه . شعرت بنفسى أحدجه بعينين صافيتين كالبللور .

منذ ذلك الوقت فصاعداً ، عشقت أومى .

كان هذا هو العشق الأول فى حياتى ، وإذا ما اغتفرت لى مثل هذه الطريقة الصريحة فى الحديث ، لقلت أنه كان عشقاً حميم الارتباط برغبات الجسد .

بدأ التوق إلى الصيف يساورنى ، أو على الأقل إلى مطلع

الصيف ، رحت أحدث نفسي بأن الصيف يقيناً سيجلب معه فرصة لرؤية جسده العارى ، كذلك كمنت فى أعماقى رغبة خجول فى أن أرى ذلك «الشيء الضخم» الذى له .

على لوحة مفاتيح ذاكرتى ، تقاطعت أسلاك ذلك الزوج من القفازات الجلدية الذى كان لأومى ، وزوج من القفازات البيضاء الطقوسية أبداً لم يلح لى أننى قادر على تحديد أى ضروب الذكرى كانت حقيقية ، وأيها كانت زائفة ، ربما كانت القفازات الجلدية أكثر تناغماً مع ملامحه الخشنة ، ومع ذلك فإنه بسبب ملامحه الخشنة على وجه الدقة ربما غدت القفازات البيضاء مجدداً أكثر التصاقا به .

ملامح خشنة – على الرغم من أننى أستخدم هذه الكلمات، فإن مثل هذا الوصف لا يعدو أن يكون توصيفاً لانطباع خلقه الوجه العادى لشاب وحيد يختلط بصبية . وعلى الرغم من أن تركيبه الجثمانى كان لا مثيل له بيننا فإنه لم يكن أطولنا قامة . ما كان الزى الرسمى الموحى بالإدعاء الذى تطالبنا المدرسة بارتدائه والذي يحاكى زى ضباط البحرية ، ليستقر على أبداننا الغضة ، وحده كان أومى يملأ هذا الزى بشعور الوزن الثقيل وبضرب ما من الشهوانية . مؤكد أننى لم أكن الوحيد الذى ينظر بعينين حاسدتين وعاشقتين إلى عضلاته وكاهله وصدره ، ذلك النوع من

العضلات الذى يمكن تبينه ، حتى تحت زى رسمى خشن الزرقة .

كان ثمة شىء يحاكى شعوراً خفياً بالتفوق يهوم دائماً حول وجهه ، وربما كان هذا النوع من الشعور هو الذى يتعالى لهيبه كلما جرحت كبرياء المرء ، ويبدو أنه بالنسبة لأومى كانت ضروب الفشل من نوعية الرسوب في الامتحانات والطرد من المدارس رموزا لإرادة محبطة إرادة ماذا ؟ تصورت فى غموض أنه لابد من وجود نوع من الأهداف تنطلق «عبقريته الشريرة» دافعة إياه نحوه . كنت على يقين من أنه لم يعرف تماماً الغرض الكامل من هذه المؤامرة الواسعة النطاق التى تحاك ضده .

ثمة شىء فى وجهه .. يمنح المرء شعوراً بوفرة الدم الذى يتدفق فى زخم عبر بدنه ، كان وجها بدرياً ، ترتفع عظام الوجنتين من خدين داكنين ، شفتان تلوحان وكأنما حيكتا فغدتا خطاً بديعاً ، وفك قوى ضخم ، وأنف عريض وإن يكن حسن التكوين وغير مبالغ فى بروزه . كانت هذه الملامح غطاء لروح لم تعرف الترويض ، ترى كيف كان يمكن لأحد أن يتوقع أن تكون لمثل هذا الشخص حياة سرية غائرة فى الأعماق ؟ كان كل ما يأمل المرء فى أن يجده لديه هو مثال ذلك الكمال المنسى الذى فقدته بقيتنا فى ماض سحيق .

فى بعض الأوقات كانت خاطرة عابرة تدفعه إلى التحديق

فى الكتب المتبحرة ، التى تتجاوز كثيراً عمرى . والتى كنت أعكف عليها . كنت دائماً أبتسم متنصلاً ، وأغلق دفتى الكتاب الذى أمسك به لمنعه من رؤيته ، لم يكن ذلك بدافع الخجل ، وإنما كانت تؤلمنى أية إشارة إلى أنه قد يهتم بأشياء من نوعية الكتب . قد يفصح عن افتقار للمرونة فى التعامل معها ، قد يبدو وكأنه سئم كماله الذى لا يعيه ، شعرت بالمرارة فى التفكير بأن صياد الأسماك هذا قد ينسى الصحراء وينكر أيونيا [1] التى ولد فيها .

رحت أراقب أومى بلا انقطاع ، فى قاعة الدراسة ، وفى الملاعب . فيما كنت أقوم بذلك مضيت فى بناء صرح تصور عنه لا تشوب كماله شائبة ، من ثم فليس بمقدورى أن أجد عيباً واحداً فى الصورة التى ظلت منطبعة على سطح ذاكرتى . وفى عمل كهذا الذى أكتبه ينبغى بعث الحياة فى الشخصية بوصف خاصية مميزة من نوع ما ، هنة محببة ، لكننى لم أستطع أن أنتزع من تذكرى لأومى هنة واحدة من هذا القبيل . غير أنه كان

(١) الأيونيون فرع من العرق الهللينى ، أحل أتيكا والساحل الشمالى للبيلوبونيز ، وأقام مستعمرات خاصة فى آسيا الصغرى ، حيث أطلق الاسم على مقاطعة كبيرة سميت أيونيا ، والإشارة هنا إليها تعميما على بلاد الإغريق التى تعد تقريبا موطن هذا الضرب من العلاقة الإنسانية الخاصة موضح التناول فى النص (هـ . م .) .

هناك ما لا يحصى من الانطباعات الأخرى عن أومى ، لا متناهية فى تنوعها تحفل جميعاً بفروق دقيقة لا تكاد تبين . وبكلمة كان ما استخلصته منه تحديدا دقيقاً لكمال الحياة والرجولة متجسداً فى حاجبيه ، جبينه ، مقلتيه ، أنفه ، أذنيه ، وجبينه ، عظام خديه ، شفتيه ، فكيه قفاه ، عنقه ، بشرته ، لون جلده ، قوته ، صدره ، يده ، وسمات أخرى لا حصر لها تمتع بها .

بهذه السمات كمنطلق مارس مبدأ الاختبار عمله ، وأكملت نسقاً منهاجياً لما أعشق وما أمقت : بسببه لا أستطيع أن أحب شخصا مفكرا ، من جرائه لا يجتذبنى شخص يضع عوينات ، وهو علة شروعى فى عشق القوة ، الانطباع بتدفق الدم ، الجهل ، التلويحات الخشنة ، الحديث اللامبالى ، والانقباض الوحشى الغائر فى لحم البدن ، الذى لم يلوثه الذهن بأى شكل ...

مع ذلك ، ومنذ البداية ، كانت استحالة منطقية تتداخل بالنسبة لى مع هذه الأشواق الفجة ، جاعلة رغباتى مستحيلة التحقيق . ليس هناك كقاعدة عامة ماهو أكثر منطقية من الدافع الشهوانى ، ولكن فى حالتى ما أن أشرع فى مشاركة شخص ما اجتذبنى فى التفاهم الذهنى حتى تتداعى رغبتى فى ذلك الشخص. بل أن اكتشافى أهون النزعات الفكرية شأناً عند رفيق ما كان يجبرنى على الالتزام بتقدير عقلانى للقيم . وفى علاقة أخذ وعطاء

كالحب يتعين على المرء أن يعطى الشىء ذاته الذى يطلبه من الآخر، ومن هنا فإن رغبتى فى الجهل لدى الرفيق قد اقتضت ، أيا كان طابعها المؤقت ، تمرداً غير مشروط من جانبى ضد العقل . لكن مثل هذا التمرد كان مستحيلاً بصورة مطلقة بالنسبة لى .

هكذا فإننى حينما أواجه أولئك الذين يتمتعون باللحم الحيوانى المحصن ، الذى لم يفسده العقل ، الشباب الخشنين ، البحارة الجنود ، الصيادين ، لا يبقى أمامى ما أفعله غير أن أظل أراقبهم من بعيد بلا مبالاة مشبوبة ، حريصاً على ألا أتبادل الحديث معهم . ربما كان المكان الوحيد الذى أستطيع الحياة به فى يسر هو بلاد إستوائية بدائية ، حيث لا أتبادل مع الأخرين إلا جمجمة لا تبين . الآن فيما أتأمل الأمر ، أدرك أننى كنت منذ صدر طفولتى أستشعر توقاً نحو فصول الصيف المتوترة ، من ذلك النوع الذى يتقد للأبد فى البلاد البدائية ..

طيب ، إذن ، هناك تلك القفازات البيضاء التى كنت بسبيلى للحديث عنها .

كانت العادة فى مدرستى أن نكسو أيدينا بقفازات فى أيام الاحتفالات ، كان مجرد وضع زوج من القفازات البيضاء بأزرار من عرق اللؤلؤ ، تلتمع فى كآبة عند الرسغين ، وبثلاثة صفوف

وسيطة من التطريز على الظهر كافياً لطرح رموز كافة أيام الاحتفالات – قاعة الاجتماع الكابية التى تجرى فيها الاحتفالات ، صندوق حلوى الشيوزى الذى نتلقاه عند الخروج ، السماء الصافية التي يبدو أن مثل هذه الأيام تحدث تحتها ضوضاء براقة فى منتصف العام ثم تنهار .

كان ذلك فى عيد قومى خلال الشتاء ، دون شك هو عيد الإمبراطور . فى ذلك الصباح جاء أومى إلى المدرسة مبكرا على غير عادته .

دفع طلاب الصف الثانى الطلبة المستجدين بعيداً عن لوح التأرجح فى الملعب إلى جانب أبنية المدرسة ، مستشعرين بهجة قاسية فى القيام بذلك ، واستولوا عليه تماماً . ورغم أنهم بدوا ظاهرياً وكأنهم يزدرون لعبة كالأرجوحة ، فإنهم فى قرارة أفئدتهم كانوا يستشعرون حنيناً متأرجحاً إليها ، ويطردهم الطلاب المستجدين عنوة تمكنوا من اصطناع مظهرا ينقذ ماء وجوههم ، يدعون فى ظله الانغماس فى هذا اللهو على نحو شبه باعث على السخرية ودونما جدية . تحلق الطلاب المستجدون حول الأرجوحة على مبعدة ، وراحوا يراقبون اللعب الخشن ، الذى يمارسه طلاب الصف الأعلى ، الذين كانوا بدورهم يدركون أن ثمة جمهوراً يراقبهم . كانت الأرجوحة المعلقة على سلاسل تترنح جيئة وذهاباً

على نحو إيقاعى بحركة مدك ، وكان السباق يدور حول جعل الخصم يسقط من فوق اللوح .

وقف أومى غارساً قدميه فى منتصف لوح الأرجوحة ، متطلعاً حوله فى لهفة بحثاً عن خصوم ، لاح فى هذا المشهد كأنه قاتل حيل بينه وبين القرار .

لم يكن هناك أحد فى صفنا يمكنه الوقوف نداً له ، قفز عدد من الفتيان إلى اللوح أحدهم إثر الآخر ، لتلقيهم يدا أومى السريعتان أرضاً ، لاحت خطاهم وقد انطبعت مبتعدة على الجليد فى الأرض المحيطة بالأرجوحة ، التى راحت تألق فى أشعة الصباح الباكر .

إثر كل فوز كان أومى يضم يديه معاً ، ويرفعهما عالياً فوق رأسه ، شأن ملاكم فائز ، مبالغاً فى الابتسام ، فيهلل طلاب السنة الأولى ، ناسين أنه تزعم طردهم بعيداً عن الأرجوحة .

تبعت عيناى يديه المكسوتين بالقفازين الأبيضين . كانتا تتحركان بضراوة ، ولكن فى إحكام رائع كمخالب حيوان فتى ، ربما مثل ذئب ، وبين الفينة والأخرى تشقان هواء البكرة الشتوية ، مثل ريشتى سهم ، لتصيبا مباشرة صدر خصم . دائما كان الخصم يتهاوى إلى الأرض المكسوة بالجليد ، ساقطاً مرة على

قدميه ، وأخرى على مؤخرته . فى مرات نادرة ، ولحظة دفع الخصم بعيداً عن اللوح ، كان أومى نفسه يبدو على وشك السقوط، وفيما هو يكافح لاستعادة توازن جسده المائل ، كان يبدو مترنحاً فى عناء هناك فى سمت اللوح الذى غدا زلقاً بفعل الجليد منطفىء البريق ، لكن القوة الكامنة فى إليتيه المطواعتين اللدنتين كانت ترده، مرة أخرى إلى ذلك الوضع الذى يلوح فيه كالقاتل .

تحرك اللوح يمنة ويسرة ، كأنما من تلقاء ذاته ، فى أقواس لاتعرف الاضطراب ...

فيما رحت أراقب ، عمنى فجأة قلق ، ضرب مبرح الألم من القلق يستعصى على التفسير . حاكى دواراً كالذى يمكن أن يلم بالمرء من جراء التحديق فى تأرجح اللوح ، لكنه لم يكن كذلك . ربما كان دواراً ذهنياً ، قلقا يغدو توازنى الداخلى فيه على وشك التداعى ، إزاء مرأى كل حركة من حركاته المحفوفة بالخطر . وتفاقم اهتزاز هذا الاضطراب من جراء وجود قوتين متضادتين فى غماره راحتا تتجاذباننى ، وكل منهما تنشد السيطرة علىّ ، كانت الأولى غريزة حفظ الذات ، أما القوة الثانية ، التى عقدت العزم بعمق أشد وزخم أكبر على التدمير التام لتوازنى الداخلى ، فكانت دافعاً لا يقاوم باتجاه الانتحار ، دافعاً مراوغاً ، خفياً ، غالباً ما يسلم المرء نفسه له دونما وعى .

– ماذا دهاكم ، ياحفنة من الجبناء . أما من آخر يبرز لى؟

كان جسم أومى يتأرجح فى رقة يمنة ويسرة ، وإليتاه تطاوعان حركة الأرجوحة . أراح يديه المكسوتين بالقفازين الأبيضين فوقهما ، تألق الشعار المذهب على قبعته تحت شمس الصباح . أبداً لم أره وسيماً كما لاح لى فى هذه اللحظة .

صحت : أنا لها !

تزايد وجيب قلبى معربداً فى عنف . استخدمته كمقياس لأقدر على وجه الدقة اللحظة التى سأنطق فيها بهذه الكلمات أخيراً . كان الأمر كذلك دائماً فى اللحظة التى أستسلم فيها للرغبة . بدا لى أن ذهابى ووقوفى بإزاء أومى على ذلك اللوح هو حقيقة قدرت سلفاً ، وليست عملا أملاه دافع فحسب ، وفى سنوات تالية ضللتنى أعمال كهذه ، وحملتنى على التفكير بأننى «رجل يتمتع بإرادة قوية» .

صاح الجميع : حذار ! حذار ! سيطاح بك .

وسط هتافاتهم الساخرة ، صعدت إلى أحد جانبى الأرجوحة . فيما حاولت الصعود شرعت قدمى فى الانزلاق . من جديد حفل الهواء بصيحات السخرية الصاخبة .

حيَّانى أومى بوجه ضاحك . حاول التظاهر بالبلاهة بكل

قوته ، وتصنع أنه على وشك الانزلاق ، جعل يضايقنى بالتلويح بأصابعه المقفزة ودفعها نحوى ، أمام عينى بدت تلك الأصابع بمثابة الأطراف الحادة لسلاح خطر يوشك أن يخترقنى .

إلتقت راحات أيدينا المكسوة بالقفازات مرات عديدة فى صدمات لاذعة الألم ، وفى كل مرة كنت ألتوى تحت عتو الضربة ، بدا جلياً أنه كان يكبح جماح قوته عامداً ، كأنما كان يرغب فى الاستمتاع باللهو بى ، مؤجلاً ما كان يمكن أن يكون لولا ذلك هزيمة ماجلة تحيق بى .

- أوه ! إننى خائف - ما أقواك ! لقد هزمت ، أوشك على السقوط ، أنظر إلىّ !

أبرز أومى لسانه ساخراً ، وتظاهر بأنه على وشك السقوط.

كان أمراً مؤلماً على نحو عصى الاحتمال أن أرى وجهه الساخر ، أن أشاهده يقضى دونما قصد على جماله . وعلى الرغم من أننى كنت الآن أدفع للخلف على اللوح لم أستطع إلا أن أنكس رأسى . فى هذه اللحظة عينها فوجئت بانقضاضة من يده اليمنى وفى اندفاع تلقائى لتجنب السقوط ، دفعت بيدى اليمنى فى الهواء ، وأفلحت بالمصادفة فى التشبث بأطراف أصابع يده اليمنى غمرنى شعور مضمخ بالحياة

بملمس أصابعه المتضامة داخل قفازه الأبيض .

للحظة ، حدق أحدنا فى مقلتى الآخر . كانت حقاً لحظة واحدة ، تبددت النظرة الساخرة ، واكتسى وجهه تعبيراً غريب الشحوب . تذبذب شىء نقى ، شىء ، لا هو عداء ولا هو مقت ، هناك كأنه وتر قوس . أو ربما كان هذا خيالاً فحسب . ربما لم يعد ذلك أن يكون النظرة الصارمة الجوفاء التى فرضتها لحظة شعر فيها بأنه يفقد توازنه ، وهو يجذب من أطراف أصابعه . أياً ما كان الأمر ، أدركت بجدسى وعلى وجه اليقين أن أومى أدرك الطريقة التى أنظر بها إليه فى تلك اللحظة ، وشعر وأحس بالقوة الخافقة التى تدفقت كالبرق بين أصابعنا ، وخمن كنه سرى : أننى أعشقه ، ولا أحب أحداً غيره فى الدنيا .

فى هذه اللحظة عينها ، على وجه التقريب ، سقطنا كلانا من فوق لوح الأرجوحة .

ساعدنى أحدهم فى الوقوف ، كان أومى هو الذى ساعدنى جذب يدى عاليا بخشونة ، ودون كلمة واحدة أزاح القذر عن ردائى المدرسي . كان مزيج من القذر والجليد المتألق يلطخ كوعه وقفازيه

تأبط ذراعى ، شرع فى السير بعيداً معى . تطلعت إلى

وجهه ، كأنما فى استنكار لهذا الإفصاح عن الحميمية .

كنا جميعا فى مدرستى زملاء فى الدراسة منذ أيام المدرسة الابتدائية ، ولم يكن ثمة ما هو غير مألوف فى أن يضع أحدنا يده على كتفى الآخر . فى هذه اللحظة دوت صفارة تشكيل الصفوف ، فسارع الجميع وهم يسيرون على هذا النحو الحميم ذاته ، لم يكن سقوطى مع أومى على الأرض ، بالنسبة لهم ، إلا ختاما للعبة ، كانوا قد شرعوا تدريجيا فى الشعور بالضيق والملل من مشاهدتها ، بل أن سيرى مع أومى بأذرع متشابكة ما كان بالمشهد الذى يستحق انتباهاً خاصاً .

لكل هذا ، كانت بهجة غامرة تلك التي استشعرتها فيما كنا نسير وأنا متكىء على ذراعه ، وربما لبنيتى الهشة كنت أستشعر دائماً هاجساً بمقدم الشر فى غمار كل فرحة . لكنني فى هذه المرة لم أشعر إلا بالملمس الوحشى الحاد لذراعه ، بدا هذا الشعور وكأنه ينتقل من ذراعه إلى ذراعى ، وحينما يلج جسمى ينتشر ، إلى أن يتدفق فيضاناً فى بدنى بكامله . أحسست أننى ينبغى أن أسير معه ، على هذا النحو ، حتى نهاية الأرض .

لكننا وصلنا إلى المكان الذى تتشكل فيه الصفوف ، حيث سرعان ما ترك ذراعى واحتل مكانه فى الصف . بعد ذلك لم ينظر

باتجاهى ، وخلال الحفل الذى تلا هذا جلس على بعد أربعة مقاعد منى ، ومراراً وتكراراً رحت أنقل ناظرى بين اللطخ التى تعلو قفازى الأبيضين وتلك التى تكسو قفازى أومى .....

تجردت عبادتى العمياء لأومى من أى عنصر من عناصر النقد الواعى ، وحيثما تعلق الأمر به غابت الرؤية الأخلاقية عنى ، وما إن كنت أحاول الأمساك بكتلة عبادتى العاشقة الفوضوية فى إطار قيود التحليل حتى تتبدد منداحة فى المجهول . وإذا كان قد وجد فى يوم من الأيام عشق يتجرد من الدوام ومن التطور ، فقد كان هذا هو على وجه الدقة العاطفة التى استشعرتها . كأنما كانت العينان اللتان أرمق بهما أومى دائماً هما عينان تعرفان «النظرة الأولى» أو كانت – إذا جاز القول بذلك – عينى «النظرة البدائية» كان موقفا غير واع على نحو محض من جانبى ، جهداً دءوبا لحماية نقائى البالغ الرابعة عشرة من العمر من عملية التآكل.

أيمكن أن يكون هذا حبا ؟ لنفترض أنه شكل من أشكال الحب ، فعلى الرغم من أنه يحتفظ عند النظرة الأولى فيما يبدو بنقائه إلى الأبد بتكرار شكله مرات عديدة ، فإنه بدوره يتمتع بضربه الخاص الفريد من التدنى والتحلل . وقد كان تدنياً أكثر تفجراً بالشر من أى تدن لضرب عادى من الحب . حقاً أنه من بين كافة ضروب التحلل فى هذا العالم يبدو النقاء المتحلل أكثرها خبثاً .

رغم هذا ، وفى غمار عشقى هذا الذى لم يجاز لأومى ، فى خضم هذا الحب الأول الذى واجهته فى الحياة بدوت كطائر صغير يخفى شهواته البدنية البريئة تحت جناحه . لم يكن ما يغرينى هو الرغبة فى التملك ، إنما أغوانى الأغراء ذاته متجرداً من كافة ضروب التجمل .

أقل ما يقال إننى أثناء وجودى بالمدرسة ، وبصفة خاصة خلال الدروس مضجرة ، ما كنت أستطيع نزع عينى بعيداً عن الملمح الجانبى لوجه أومى ترى ماذا كان بوسعى أن أفعل أكثر من ذلك فى وقت كنت أجهل فيه أن الحب هو أن تسعى ويسعى إليك ؟ لم يكن الحب بالنسبة لى يتجاوز حواراً قوامه احجيات صغيرة لا ردود عليها ، أما عن روح عشقى المتبتل فلم يحدث أبداً أن تخيلت أنه شىء يتطلب نوعا من الرد .

أصابتنى نوبة برد ذات يوم ، ورغم أنها لم تكن ذات بال على الاطلاق فقد مكثت فى الدار ، ولم أذهب للمدرسة ، لدى عودتى إليها فى اليوم التالى ، اكتشفت أن اليوم الذى تغيبت فيه لم يكن إلا يوم الفحص الطبى لفصل الربيع فى عامنا الثالث ، وبالمثل تغيب العديد من الطلاب الآخرين عن الفحص ، فمضينا جميعاً إلى العيادة .

هناك ، راح موقد غازى يرسل فى سنا الشمس لهباً

أزرق متهافتاً ، حتى ليصعب على المرء التيقن من أنه مشتعل . لم يكن ثمة إلا رائحة المطهرات . لم تفح تلك الرائحة التى تذكر باللون الوردى الشاحب ، التى تسود فى قاعة تزدحم بفتية ينتظرون فحصاً طبيا وأجسامهم العارية تتضارب وتتدافع بعضها نحو البعض الآخر . بدلاً من ذلك لم يكن هناك إلا عدد محدود منا ينزعون ثيابهم فى صمت ، وهم يرتعدون على نحو بائس ...

ثمة فتى مهزول ، كان مثلى دائم الإصابة بنوبات البرد . اعتلى الميزان ، رحت أحدق فى ظهره الشاحب الناتىء العظام المكسو بالزغب . فجأة تذكرت رغبتى الأزلية الوحشية فى رؤية جسد أومى العارى . أدركت كم كنت غبياً حينما لم أعرف مسبقاً أية فرصة متكاملة كان يمكن أن يتيحها الفحص الطبى أمس لتحقيق هذه الرغبة ، أما الآن وقد ضاعت هذه الفرصة بالفعل فلم يبق ما أفعله إلا انتظار صدفة عشوائية فى المستقبل .

غمرنى الشحوب . فى غمار شعورى باللون الضارب إلى الخضرة الذى كسانى فجأة ، عرفت ضرباً من الأسى يحاكى برداً يخترق العظام . حدقت ذاهلاً فى الهواء ، خادشاً قروح التطعيم البشعة التى تعلو ذراعىّ النحيلتين . نودى اسمى ، بدا الميزان تماماً مثل مقصلة تعلن ساعة إعدامى .

– ثمانية وثمانون .

نبح الممرض ناحية طبيب المدرسة ، كان حاجباً سابقاً فى مستشفى عسكرى ، ومازال يحتفظ بالسمات العتيقة .

غمغم الطبيب محدثاً نفسه ، فيما هو يدون الرقم فى بطاقتى :

– وددت لو أنه بلغ تسعين رطلاً على الأقل .

إعتدت التعرض لهذه المعاملة فى كل فحص طبى . لكننى اليوم كنت سعيداً لأن أومى لم يكن حاضراً ، فيشاهد إذلالى حتى إن كلمات الطبيب لم تسبب لى العذاب المعتاد ، وللحظة تصاعد شعورى بالارتياح ، حتى رقى إلى مرتبة الفرح ...

– ليكن ، التالى !

دفع الممرض كتفى منحيا وقد نفد صبره ، لكننى هذه المرة لم أحدجه بنظرة الكراهية والضيق المعتادة .

بالرغم من هذا كله ، فمن المحتم أننى استشرفت نهاية حبى الأول ، وفى الغالب كان هذا القلق الذى خلقه هذا الهاجس هو الذى شكل بؤرة لذتى .

حل يوم فى أواخر الربيع ، بدا كعينة حائك قصت من

حزام الصيف ، أو مثل تجربة ثوب الفصل المقبل . كان ذلك هو اليوم الذى يقبل موفداً من قبل الصيف ليتفقد خزائن ثياب الجميع ويتيقن من أن كل شىء معد . كان اليوم الذى يبدو فيه الناس وقد ارتدوا قمصان الصيف ليظهروا أنهم اجتازوا امتحاناً عسيراً .

أصابتنى نوبة برد ، رغم دفء اليوم ، والمتنى شعبى الهوائية ، تصادف أن أحد أصدقائى عانى من آلام فى معدته ، فمضينا معا إلى العيادة لنحصل على تصاريح مكتوبة تخولنا أن نراقب التدريبات الرياضية فحسب ، دون أن نضطر للمشاركة فيها .

فى طريق عودتنا سرنا نحو قاعة الألعاب الرياضية بأقصى بطء نستطيعه ، أمدتنا زيارتنا للعيادة بسبب وجيه لتأخرنا حرصنا على أن نقلل ولو بهامش محدود الوقت المضجر الذى سنمضيه فى مشاهدة الألعاب .

- ياإلهى . كم هو حار هذا اليوم ، ألا تراه كذلك ؟

قلتها ، نازعا سترة ردائى .

- خير لك ألا تفعل هذا ، على الأقل وأنت مصاب بالبرد ، سيرغمونك على التدريب على أية حال ، إن رأوك على هذا النحو .

أعدت ارتداء سترتى مسرعاً .

– لكن الأمر سيكون على ما يرام بالنسبة لى ، فمعدتى وحدها هى التى تؤلمنى . قالها صديقى ، وشرع فى حذق ينزع سترته ، كأنما ليغيظنى بذلك .

بلغنا قاعة الألعاب ، فرأينا من خلال الملابس المعلقة على المشاجب الممتدة على الحائط أن الفتية نزعوا ستراتهم ، بل وخلع بعضهم قميصه لاحت المنطقة المحيطة بأجهزة التدريب متألقة الضوء ، ونحن نطل عليها من القاعة المعتمة . أفرز تركيبى الهش استجابته المعتادة ، سرت نحو أجهزة التدريب مصدرا سعالى القصير الشكس .

لم يكد مدرب الألعاب الرياضية الهين الشأن يلقى نظرة على أعذارنا الطبية المكتوبة التى أسلمناها له ، وإنما التفت على الفور إلى الفتية المنتظرين ، وصاح :

– ليكن حالياً ، دعونا نجرب «العقلة» ، أومى أرهم كيف يؤدى التدريب !

شرعت أصوات ودودة تردد اسم أومى خلسة ، كان قد اختفى على نحو ما يصنع غالباً خلال التمارين الرياضية . ولم يكن أحد يدرى ماذا يصنع فى هذه المناسبات ، لكنه فى هذه المرة أقبل مجدداً فى تكاسل من وراء شجرة كانت أوراقها الخضراء

الغضة ترتعد فى خفة .

حينما رأيته ، إصطخب قلبى فى صدرى ، كان قد نزع قميصه ، لم يترك شيئاً يكسوه إلا قميصاً داخلياً ألاق البياض دون أكمام يغطى صدره . جعلت بشرته الداكنة القميص الداخلى يبدو أكثر نصاعة ، كان بياضاً يمكنك على وجه التقريب أن تتشممه على بعد كأنه لصوق باريس . وكان ذلكَ اللصوق الأبيض محاكاً على نحو مريح يظهر التعاريج الجريئة لصدره ، ويشف عن حلمتيه .

– العقلة . أليس كذلك ؟

سأل أومى المدرب فى جفاف ، وبصوت يشى بالثقة .

– بلى ، هذا صحيح .

عندئذ ، وبذلك التراخى المتعالى ، الذى غالباً ما يبديه من يتمتعون بتركيب جثمانى وثيق ، مد أومى يديه إلى الأرض لاهياً ، كسيا راحتيهما بالرمل المبلل من تحت سطح الأرض مباشرة ، نهض ، حك يديه إحداهما بالأخرى فى خشونة ، إلتفت نحو العقلة إلتمعت عيناه بحسم جرىء ، كمن يتحدى الآلهة . وللحظة عكس بؤبؤاه سحب وسماء مايو الزرقاء بترفع بارد .

إندلعت وثبة فى بدنه . فى الحال تدلى جسمه من العارض

معلقاً هناك بذراعيه القويتين ذراعان جديران يقيناً بوشم الهلب .

– آآه !

ارتفعت صيحة الاعجاب التي ندت عن رفاقه ، وطفت دبقة في الهواء .

كان بوسع أي من الفتية أن يحدق في قلبه ، ويكتشف أن إعجابه لم يثر إزاء إستعراض القوة الذي قام به أومي ، وإنما كان إعجابا بالشباب ، بالحياة ، بالتفوق . وكان دهشة إزاء وفرة الشعر النامي الذي كشفت ذراعا أومي المرفوعتان عنه تحت أبطيه.

تلك هي المرة الأولى ، ربما ، التي رأيت فيها مثل هذه الوفرة من الشعر . بدت مبالغة وإسرافا ، شأن الوفرة المترفة لبعض أعشاب الصيف الشائكة ، ومثلما يحدث حينما لا تكتفي مثل هذه الأعشاب بتغطية حديقة في الصيف ، فتمتد فوق درج حجري ، كذلك تدفق الشعر ناتئا من أبطي أومي البديعين ، وتمدد كثيفاً نحو صدره . تألقت هاتان الأجمتان في وميض صقيل وهما تستحمان في نور الشمس ، وبدا البياض الشاهق لجلده هناك مثل رمال بيضاء تطل منهما .

حينما شرع في جذب جسده إلى أعلى فوق العارض ، برزت عضلاته صلدة ، وتضخم كتفاه مثلما سحب الصيف .

تحولت أجمتا ابطيه إلى ظلال قاتمة واختفتا تدريجياً ، وأخيراً إحتك صدره متصاعداً عاليا بالعارض الحديدى ، مرتجفاً هناك فى رقة ، وبتكرار هذه الحركات راح يجذب جسده عالياً مرات عديدة .

قوة الحياة . كانت الوفرة المحض لقوة الحياة هى التى تدفقت فغمرت الفتية . قهرهم الشعور الذى كان يمجه بتمتعه بزخم الحياة ، الشعور "بالعنف المفتقر للهدف الذى لا يمكن تفسيره إلا باعتباره حياة توجد من أجل ذاتها ، نمطه الخاص من وفرة الحياة اللامبالية مكفهرة المزاج . دون أن يدرى أومى انسلت قوة ما إلى لحمه ، وعكفت على السيطرة عليه والاندفاع عبره والتقاطر خارجة لتكسف بهاءه . فى هذا الصدد حاكت هذه القوة المرض . وإذ أصيب لحمه بهذه القوة العنيفة ، وضع على الأرض لا لشىء إلا ليصبح ضحية بشرية مجردة من العقل ، ضحية لاتخشى العدوى . والأشخاص الذين يحيون فى خوف من العدوى لا يمكنهم إلا النظر لمثل هذا اللحم باعتباره تقريعاً مريراً ... تراجع الفتية مترنحين ، بعيدا عنه .

أما عنى ، فقد ساورنى الشعور ذاته الذى اجتاح الفتية الآخرين ، مع اختلافات مهمة ، وكان كافيا على أية حال لجعل وجهى يتضرج خجلاً ، فقد كنت أعانى من انتصاب منذ اللحظة

الأولى التى لمحت فيها تلك الوفرة المتموجة تحت أبطية . كنت أرتدى سراويل ربيعية خفيفة ، وخفت أن يلاحظ الفتية الآخرون ما وقع لى ، وحتى إذا نحينا الخوف جانباً فقد كان ثمة انفعال آخر يخترم قلبى ، لكنه لم يكن يقيناً نشوة خالصة . قبعت هناك ، أحدق فى البدن العارى الذى طالماً اشتقت لرؤيته ، وأطلقت صدمة رؤيته على نحو غير متوقع سراح إنفعال بداخلى كان مناقضا للفرح .

كان هذا الأنفعال هو الغيرة ..

قفز أومى إلى الأرض بمظهر كذلك الذى يبدو به من أنجز عملاً نبيلاً ، حينما سمعت صدمة سقوطه أغمضت عينى ، وهززت رأسى ، ثم حدثت نفسى بأنى ما عدت أعشق أومى .

كانت الغيرة ، غيرة وحشية حتى لتدفعنى مختارا للتنكر لعشقى لأومى ..

ربما كان للحاجة – التى بدأت أستشعرها حوالى ذلك الوقت إلى مساق أسبرطى فى الانضباط الذاتى – علاقة بهذا الموقف (لا يعدو كونى عاكفاً ، على تدبيج هذا الكتاب أن يكون بالفعل مثالاً على جهودى المتواصلة فى هذا الاتجاه) كنت دائماً ، بسبب مرضى والرعاية المسرفة التى تلقيتها منذ حداثتى ، أكثر

خجلاً من أن أحدق فى عيون الناس مباشرة ، لكنى الآن يسيطر عليّ شعار واحد : «كن قويا!» .

ولتحقيق هذه الغاية عكفت على ممارسة تدريب يتمثل فى التقطيب بثبات فى وجه هذا الراكب أو ذاك من ركاب الحافلات ، التى كنت أستقلها في الذهاب إلى المدرسة والعودة منها . لم يبد معظم الركاب الذين كنت أختارهم بصورة عشوائية ما ينم بصفة خاصة عن الخوف من أن يحدق بهم فتى ضعيف شاحب ، لكنهم كانوا يلتفتون إلى الناحية الأخرى ، وكأنما حل بهم الضيق ، ونادراً ما كان أحدهم يبادلنى التقطيبة بمثلها ، وحينما ينظرون بعيداً كنت أعد ذلك فوزاً لى ، وبهذه الطريقة دربت نفسى تدريجيا على التحديق فى عيون الناس ..

بعد أن قررت أنني تخليت عن الحب ، أزحت كافة الأفكار الأخرى عنه من ذهني ، كان ذلك استنتاجاً متعجلاً يفتقر إلى التفكير . لم أضع موضع الاعتبار واحداً من أوضح براهين العشق الجنسي ، أي ظاهرة الانتصاب . فعلى امتداد فترة طويلة حقاً عرفت الانتصاب مرات عديدة ، إنغمست كذلك فى تلك «العادة السيئة» التى تستحث الانتصاب حينما أنفرد بنفسى ، دون أن أصبح مدركاً لما تأتيه يداى . وعلى الرغم من تملكى لناحية المعرفة المعتادة فيما يتعلق بالجنس ؛ لم يكن الشعور

بكونى مختلفاً قد أصابنى بعد .

لا أرمى إلى القول بأننى كنت أنظر إلى رغباتى تلك ، التى تنحرف عن المعايير المقبولة ، باعتبارها رغبات عادية وتقليدية ، ولا أقصد أننى كنت أتصرف بوحى الانطباع الخاطىء بأن أصدقائى كانت لهم الرغبات نفسها . ومن الغريب أننى كنت منغمساً فى أقاصيص رومانسية ، حتى أني وهبت كافة أحلامى الوردية لأفكار عن الحب بين رجل وعذراء وعن الزواج ، تماماً كما لو كنت فتاة صغيرة لاتعرف شيئاً عن الدنيا . ألقيت بحبى لأومى إلى كومة من نفايات الأحجيات المهملة دون أن أبحث مرة واحدة بعمق عن معناه الآن حينما أكتب كلمة حب ، عندما أدون كلمة عاطفة، أجد أن المعنى الذى أفهمهما به مختلف تماماً عن فهمى للكلمتين فى ذلك الوقت . بل أننى لم أحلم أبداً بأن مثل هذه الرغبات التى استشعرتها نحو أومى قد يكون لها اتصال مهم بالحقائق الواقعية لحياتى.

ومع ذلك فإن غريزة ما بداخلي كانت تلح فى جعلى أسعى للعزلة ، حتى أظل نائياً بحسبانى شيئاً مفارقاً . تجلت هذه القوة القاهرة فى شكل ضيق غريب وغامض ، وقد سبق لى أن وضعت بالفعل كيف أن شعوراً بالقلق كان يجثم على صدرى لدى فكرة تحولى إلى فتى بالغ ، وقد استمر شعورى بالنمو مصحوباً بقلق غريب نافذ .

خلال سنوات نموى حيكت طية عميقة إلى كافة السراويل الجديدة لتتم إطالتها كل عام ، وكما هو الشأن فى أية أسرة أخرى سجل طولى المتزايد بعلامات متتابعة بالقلم على أحد أعمدة الدار . كانت الاحتفالات الصغيرة لهذه المقاييس الدورية تجرى دائماً فى قاعة المعيشة ، تحت أنظار العائلة بأسرها ، وفى كل مرة كانوا يداعبوننى ، يجدون لذة ضيقة الأفق فى استطالة قامتى ، كنت أرد بابتسامات مغتصبة .

ملأتنى فكرة أننى قد أبلغ طول فتى بالغ بهاجس خطر مخيف ، فمن ناحية تفاقم شعورى غير القابل للتحديد بالقلق من قدرتى على أن أعيش أحلاماً منبتة الصلة بالواقع ، ومن ناحية أخرى دفعنى نحو «عادتى السيئة» التى جعلتنى ألوذ بتلك الأحلام كان القلق عذرى ..

ذات مرة قال لى صديق ضاحكاً ، مشيراً إلى ضعف بنيتى:

- يقيناً ستلقي حتفك قبل بلوغ العشرين .

- ياله من قول فظيع !

رددت مجعداً وجهى فى إبتسامة مريرة . لكن نبوءته كانت تتمتع بجاذبية غريبة العذوبة ورومانسية بالنسبة لى .

واصل حديثه قائلا :

- أترغب في الرهان على هذا ؟

- لكنك إذا راهنت على موتى ، فلن يبقى لى إلا أن أراهن على حياتى .

قال صديقى متحدثا بكل قسوة الشباب :

- هذا صحيح . أليس كذلك ؟ ياله من عار . أليس كذلك . يقيناً ستخسر . ألن تخسر ؟

كان الأمر حقيقياً ، لا ينطبق عليّ وحدى ، وإنما على كافة الطلاب ممن هم فى عمرى ، مامن شيء يقارب نضج أومى كان يمكن رصده بعد تحت اباطنا ، وإنما كانت هناك فحسب براعم بالغة الوهن ، يعد الأمل بأنها قد تزهو يوماً ، لهذا السبب لم يحدث من قبل أبداً أن أبديت اهتماماً خاصاً بهذا الجزء من جسدى ، يقيناً أن مرأى الشعر تحت إبطى أومى فى ذلك اليوم هو الذى أورثنى الولع بالابط .

مضى الأمر على هذا النحو حتى أننى كنت حينما أستحم أقف طويلاً أمام المرآة ، محدقاً فيما انعكس على صقالها قبيحاً من بدنى العارى ، كانت تلك حالة أخرى لفرخ البط القبيح الذى أعتقد أنه سيغدو بجعة ، اللهم إلا فيما يتعلق بأنه فى هذه المرة قدر لتلك القصة الخرافية البطولية أن تكون لها نهاية عكسية على

وجه الدقة ، وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك أدنى تشابه بين كتفي المهزولين وصدري الضيق وبين كتفي أومي وصدره ، فقد كنت أحدق بها في المرآة ، وأجد عنوة أسباباً للاعتقاد بأنني سيكون لي ذات يوم صدر مثل صدر أومي وكتفان يحاكيان كتفيه . ولكن على الرغم من هذا ، تكوّن جليد هش هنا وهناك فوق سطح قلبي . كان شيئاً يتجاوز القلق . كان ضرباً من القناعة المازوكية ، قناعة راسخة ، كأنما تستند إلى وحي إلهي ، قناعة جعلتني أحدث نفسي : «أبداً لن تستطيع في هذه الدنيا أن تحاكي أومي» .

في أعمال الطبع بالروسم التي خلفها عهد الجنروكو يجد المرء غالباً أن ملامح العاشقين متماثلة على نحو مذهل ، فليس هناك إلا القليل مما يميز الرجل عن المرأة ، وبالمثل يقترب المثال السائد للجمال في النحت الأغريقي من التماثل الوثيق بين الأنثى والذكر . ألا يمكن أن يكون ذلك أحد أسرار الحب ؟ ألا يمكن أن يسري في أعمق مكامن الحب حنين يرغب كل من الرجل والمرأة في إطاره في أن يصبح على وجه الدقة صورة الآخر ؟ ألا يمكن أن يدفعهما هذا الحنين قدماً ، فيقودهما أخيراً إلى رد فعل مأساوي ، يسعيان في غماره لتحقيق المستحيل بالمضي إلى الطرف الأقصى المناقض ؟ وباختصار ، حيث أن حبهما المتبادل لا يمكن أن يحقق كمال الهوية المشتركة ، أليست هناك عملية ذهنية يحاول كل منهما عن طريقها تأكيد نقاط اختلافهما ، فيؤكد الرجل

ذكورته والمرأة أنوثتها ، ويستخدم هذا التمرد ذاته كشكل من أشكال الدلال نحو الآخر؟ أو أنهما إذا ما حققا التماثل فإنه لسوء الطالع لايدوم إلا للحظة وهم عارضة . ذلك أنه فيما تصبح الفتاة أكثر جرأة والفتى أشد حياء ، تحل لحظة يتجاوز كل منهما الآخر فيها ، ماضياً نحو الطرف المقابل ، مبالغين فى تحقيق هدفهما ، وماضين إلى ما وراء ذلك ، إلى نقطة عندها يتلاشى الهدف .

إذا نظرنا فى هذا الضوء إلى غيرتى ، غيرة كانت من الوحشية بحيث دفعتنى لأن أحدث نفسى بأنى تخليت عن حبى ، لوجدنا حباً أكبر . كنت قد انتهيت بعشق تلك الأشياء المماثلة لتلك التى لأومى ، والتى كانت بدرجات بطيئة ، وعلى نحو متباعد ، تبرعم تحت إبطى ، تنمو تغدو أكثر دكنة وقتامة ..

حلت العطلة الصيفية . على الرغم من إننى كنت أتطلع إليها بصبر نافد ، فقد برهنت على أنها واحدة من فترات الانتظار تلك التى لا يعرف المرء خلالها ماذا يصنع بنفسه ، ورغم سعيى إليها ، برهنت على أنها وجبة عسيرة الهضم بالنسبة لى .

منذ إصابتى بحالة سل خفيفة فى طفولتى ، خطر على الطبيب تعريض نفسى للأشعة فوق البنفسجية القوية ، وما كان يسمح لى بقرب البحر أن أظل تحت أشعة الشمس المباشرة لأكثر

من نصف ساعة فى المرة الواحدة ، وكان أى إنتهاك لهذه القاعدة يجلب معه عقابه الخاص فى صورة هجوم سريع الحمى . بل لم يكن يسمح لى بالمشاركة فى التمرين على السباحة بالمدرسة ، من ثم فلم أتعلم كيفية السباحة أبداً ، وفيما بعد اكتسب هذا العجز عن السباحة أهمية جديدة ، فيما يتعلق بافتتانى الملح بالبحر وما غدا يعنيه بالنسبة لى ، وبتلك المناسبات التى قبضت قوته الكاسحة فيـها على ناصيتى .

غير أننى لم أكن فى الوقت الذى أتحدث عنه قد قابلت إغراء البحر الغلاب هذا ، مع ذلك وفى غمار رغبتى بشكل مافى أن أنفض ضجر فصل كان مقيتاً تماماً بالنسبة لى ، فصل كان فضلاً عن ذلك يوقظ فىّ أشواقاً عصية التفسير ، أمضيت الصيف على الشاطىء مع أمى وأبى وأخى وأختى ...

فجأة أدركت أننى قد تركت وحدى على الصخرة .

كنت قد سرت على امتداد الشاطىء نحو هذه الصخرة مع أخى وأختى ، منذ وقت قصير ، باحثين عن الأسماك الصغيرة التى كانت تتألق فى البريكات التى تصنعها الصخور . لم يكن صيدنا طيباً على نحو ما توقعنا ، فحل الضجر بأختى وأخى الصغيرين . أقبلت خادمة لتدعونا للعودة إلى مظلة الشاطىء ،

حيث كانت تجلس أمي . رفضت العودة غاضباً ، فصحبت الخادمة أخي وأختي ، وعادت بهما مخلفة إياي وحيداً .

راحت شمس أصيل الصيف تضرب سطح البحر في دأب كان الخليج بأسره امتداداً هائلاً من الوهج ، وعلى الأفق وقفت بعض سحب الصيف ساكنة ملتفة بالصمت ، وقد غرست نصف أشكالها الرائعة الجنائزية الحافلة بالنذير في البحر . كانت عضلات السحب شاحبة كالمرمر .

إنطلقت بضع مراكب شراعية وزوارق بخارية بعيداً عن رمال الشاطيء ، راحت تتحرك في تكاسل على سطح البحر المفتوح الصدر . وفيما عدا الأشباح الضئيلة للمراكب لم يبد مخلوق بشري واحد . حل صمت مراوغ بكل شيء ، كما لو أن امرأة مغناج أقبلت لتحكي أسرارها ، هب نسيم خفيف من البحر حاملاً للآذان صوتاً وانياً ، كأنه خفق أجنحة خفية ترف بها حشرات مبتهجة . كان الجزء القريب من الشاطيء يتألف كلية من صخور منخفضة ، هشة ، تمتد باتجاه البحر . لم يكن ثمة إلا جرف أو جرفان ناتئان كذلك الذي اقتعدته .

بدأت الموجات من عرض البحر ، أقبلت جارفة على سطحه، في شكل هضاب دائرية ، امتدت تجمعات من الصخور المنخفضة

باتجاه البحر ، حيث كانت مقاومتها للأمواج ترسل إصطفاقات عالية فى الهواء ، مثل أياد بيضاء تستجدى العون ، دفعت الصخور ذاتها فى شعور البحر بالزخم العميق ، بدت كما لو كانت تحلم بعوامات مطلقة السراح من سلاسلها . ولكن فى لمحة تتجاوزها الهضبة المائية الدائرية ، تقبل مندفعة نحو الشاطىء بسرعة لا تهدأ ، وفيما هى تقترب منه استيقظ شىء ما ونهض متطاولاً فى رأسها الأخضر . تعملقت الموجة وكشفت على مدى البصر الجسد المرهف كالموسى لبلطة البحر الهائلة متجردة ومتأهبة للضرب . فجأة سقطت المقصلة القاتمة الزرقة مفجرة نثاراً من دم أبيض . تابع بدن الموجة ، متقداً ومتهالكاً ، رأسها المجتز ، والحظة عكس زرقة السماء النقية ، تلك الزرقة المفارقة لما هو أرضى ذاتها ، والتى تنعكس فى صقال عينى شخص على حافة الردى .... خلال لحظة هجوم الموجة ، التى لم تدم طويلا ، أخفت الصخور الناعمة المتآكلة نفسها فى الزبد الأبيض ، أما وقد برزت من البحر تدريجياً فإن ألقها شع متماوجاً وسط بقايا الموجة المتراجعة . كان بوسعى من فوق قمة الصخرة ، حيث وقفت أرقب، أن أشاهد قواقع الناسك وهى تنزلق فى جنون عبر الصخور المتألقة ، والسرطانات وهى تتجرد من الحركة فى الوهج .

فجأة غدا شعورى بالعزلة ممتزجاً بذكرياتى عن أومى .

كان الأمر على هذا النحو : جعلنى إنجذابى ، الذى استشعرته طويلا ، نحو الوحدة التى تفخم حياة أومى ، وحدة ولدت من حقيقة أن الحياة قد استعبدته ، أرغب فى أول الأمر فى أن تكون لى هذه الصفة ذاتها ، أما الآن ، وفيما كنت أعايش فى هذا الشعور بالخواء أمام امتلاء البحر ، وحدة ماثلت ظاهرياً وحدته ، فقد أردت أن أستمتع بها تماما من خلال عينيه ذاتيهما . سأقوم بالدور المزدوج لى ولأومى معاً . ولكن لكى أقوم بذلك تعين على أن أكتشف أولاً موضعاً للشبه به مهما كان بسيطا . بهذه الطريقة سأتمكن من أن أصبح وسيطاً لأومى ، وأتصرف عن وعى تماماً كما لو كنت أفيض فرحاً بتلك الوحدة ذاتها التى ربما لم يكن واعيا بها ، متوصلاً أخيراً إلى تحقيق حلم اليقظة ذاك الذى تصبح فيه اللذة التى استشعرتها لمرأى أومى لذته هو التى يستشعرها .

إكتسبت منذ هيمنت علىّ صورة القديس سباستيان عادة غير واعية ، هى مصالبة ذراعى فوق رأسى ، حينما يتصادف أن أكون مجرداً من ملابسى . كان جسدى هشا ، لايحظى حتى بظل شاحب من جمال سباستيان المتدفق ، لكنى مرة أخرى وبعفوية اتخذت هذا الوضع ، وفيما كنت أقوم بذلك وقعت عيناى على إبطى فغلبت رغبة جنيسة غامضة فى أعماقى ...

كان الصيف قد أقبل ، وهلت معه تحت إبطى البراعم الأولى لأجمتى السوداوين ، حقا إنها لاتضارع ما لأومى ، لكنها كانت يقينا ، هنا إذن كانت نقطة التشابه مع أومى التى اقتضتها مقاصدى . ليس هناك شك فى أن أومى كان مندرجا فى رغبتى الجنسية ،لكنه لايمكن بالمثل إنكار أن هذه الرغبة كانت موجهة بالأساس إلى إبطى أنا . استحثتنى مجموعة حاشدة من الظروف ، النسيم الملحمى الذى جعل خيشومى يرتجفان ، شمس الصيف العاتية التى توهجت فوقى فجعلت صدرى وكتفى يخزانى، غياب الشكل الانسانى حيثما امتدت العين ، فجعلتنى للمرة الأولى فى حياتى أنغمس فى «عادتى السيئة» فى الهواء الطلق ، هناك تحت السماء الزرقاء ، وكموضوع لها اخترت إبطى أنا ..

ارتجف بدنى بأسى غريب . كنت أحترق بوحدة نارية كالشمس . كانت سراويل استحمامى القصيرة المصنوعة من الصوف البحرى الأزرق ملتصقة على نحو كئيب بمعدتى . خلفت الصخرة هابطا ، متقدما نحو بركة ماء محتجزة عند حافة الشاطىء . بدت قدماى فى الماء مثل قواقع شهباء ميتة ، ومن خلالهما خيل إلىّ أن بوسعى مشاهدة القاع بوضوح ، مكتظا بالقواقع ، ومتوهجا بالمويجات . ركعت فى الماء ، أسلمت نفسى لموجة تكسرت فى هذه اللحظة . وأقبلت مندفعة نحوى بزئير

عنيف، لطمتنى فى صدرى ، فأوشكت أن تدفننى فى قلنسوتها الشهباء الساحقة .

حين تراجعت الموجة ، كان فسادى قد أزيل ، فمع الموجة المتراجعة ، وإلى جوار ما لا يحصى من الكائنات الحية التى تحتويها، الميكروبات ، بذور النباتات البحرية ، بيض الأسماك ، كانت خلاياى المنوية التى لاتحصى قد غابت فى خضم البحر المزبد ، واكتسحت بعيداً .

عندما حل الخريف ، وبدأ الفصل الدراسى الجديد ، لم يكن أومى هناك . علقت مذكرة طرده على لوحة النشرات .

على الفور ، شرع كافة رفاق الدراسة ، دون استثناء ، فى الثرثرة حول أعمال أومى الشريرة ، منطلقين ، كما لو كانوا جماهير مندفعة ، عقب هلاك طاغية كان يحكمهم .

«... إقترض منى عشرين يناً ثم رفض ردها ... ضحك فيما كان يسلبنى قلمى المستورد ... أوشك أن يخنقنى ...»

واحداً إثر الآخر راحوا يقصون مجددا ما ألحق بهم من أضرار ، حتى بدوت الوحيد الذى لم يتعرض لشروره . أوشكت أن أجن من فرط الغيرة ، غير أن يأسى خفف من غلوائه قليلا أنه ما من أحد كان يعرف على وجه التحديد سبب طرده ، وحتى هؤلاء

الطلاب المهرة الذين يعرفون كل شيء دائما فى كل مدرسة لم يكن بمقدورهم طرح سبب يلقى من التصديق مايجعله يحظى بالقبول العام ، حينما سألنا المدرسين ابتسموا بالطبع ، وقالوا إن طرده يرجع إلى «أمر سيىء» .

كانت لدىّ وحدى ، فيما يبدو ، قناعة خفية فيما يتعلق بطبيعة هذا «الشر» . داخلنى يقين بأنه كان يشارك فى مؤامرة واسعة النطاق من نوع مالم يكن هو نفسه قد فهمها تماماً . لقد أضفت القوة الدافعة نحو الشر ، التى دسها شيطان ما فى أعماقه ، المعنى على حياته ، وشكلت قدره ، على الأقل بدا الأمر لى على هذا النحو ...

غير أننى حينما أمعنت التفكير غدا «شره» يمثل معنى مختلفا بالنسبة لى . وصلت إلى القول بأن المؤامرة الهائلة التى دفعه الشيطان إلى حبائلها ، بجمعيتها السرية وثيقة التنظيم ،، وآلياتها الخفية محكمة التخطيط كانت يقينا مكرسة لإله محرم . وقد خدم أومى هذا الاله ، حاول جعل آخرين يعتنقون دينه ، تعرض للخيانة ، وعندئذ أعدم سراً . فى غسق يوم من الأيام جرد من ملابسه حتى غدا عاريا ، إقتيد إلى أجمة فوق التل ، وهناك قيد إلى شجرة ، وكلتا يديه موثقتان عاليا فوق رأسه ، إخترق

السهم الأول جانب صدره ، أما الثاني فأصاب إبطه .

كلما أمعنت في تذكر الصورة التي شكل معالمها في ذلك اليوم ، وهو يمسك بعارض التدريب ، تأهبا لرفع جسده عاليا ، أوغلت في الاعتقاد بقربه الوثيق من القديس سباستيان .

خلال عامي الرابع بالمدرسة الوسيطة أصبت بفقر الدم . أصبحت أكثر شحوبا مما هو معتاد ، حتى أن يدى بدتا في لون العشب الميت ، حينما أتسلق درجا منحدرا أرغم على التهاوى عند قمته لالتقاط أنفاسي . كنت أحس كما لو أن ضبابا أبيض مجته الريح قد إلتف حول مؤخرة رأسي . وحفر ثقباً هناك ليجعلنى أتهاوى .

إصطحبتنى أسرتى إلى الطبيب الذى شخص ما أعانيه باعتباره فقرا في الدم ، كان رجلا دمثا ، تربطه علاقة صداقة بالأسرة . حينما شرعوا في سؤاله عن تفاصيل ما أعانيه قال :

– طيب ، لنر الاجابة التى يطرحها الكتّاب عن فقر الدم .

إنتهى الفحص ، وقفت إلى جوار مرفق الطبيب ، حيث أستطيع استراق النظر إلى الكتاب الذى كان الطبيب يقرأ محتوياته بصوت عال . جلست الأسرة في مواجهته ، وما كان بوسعهم أن يروا صفحات الكتاب .

«... ثم تلى ذلك أسباب المرض . الديدان الطفيلية ، وتلك

سبب مألوف ، وربما كانت هذه حالة الفتى ، وسيتعين علينا أن نجرى فحصا للبراز ، يلى ذلك الخلوروز ، ولكنه نادر ثم أنه على أية حال يصيب النساء ....»

عند هذه النقطة طرح الكتاب سببا آخر لفقر الدم ، لكن الطبيب لم يطالعه بصوت عال ، وإنما تجاوزه مغمغما بباقى الفقرة ، فيما هو يغلق الكتاب ، لكنى كنت قد رأيت الفقرة التى حذفها كانت «الاستمناء».

شعرت بقلبى يقفز خجلا ، فقد اكتشف الطبيب سرى . لكن ما كان يستحيل أن يكشفه أحد هو العلاقة الفردية المتوحدة بين نقص الدم عندى وشهوتى للدم ذاتها .

كان نقص الدم الموروث عندى قد غرس فى بادىء الأمر بأعماقى الدافع للحلم بسفك الدماء ، وجعلنى هذا الدافع بدوره أفقد المزيد والمزيد من مادة الدم من جسمى ، مؤديا بذلك إلى تفاقم شهوتى للدم ، وقد شحذت هذه الحياة المتهافتة القائمة على الحلم خيالى ، وأكسبته دربة . وعلى الرغم من أننى لم أكن قد تعرفت بعد على أعمال دى ساد ، فإن وصف الكوليزيوم فى كوفاديس ترك انطباعا عميقا لدىّ ، وشكلت بنفسى فكرة ساحة القتل .

هناك فى ساحة القتل الخاصة بى . كان مجالدون رومان

فى شرخ الشباب يقدمون حياتهم قربانا على مذبح مسراتى ، تعين ألا تتدفق كافة عمليات النقل التى تجرى هناك بالدم فحسب، وإنما كذلك أن تؤدى بكافة المراسيم الواجبة . كنت ابتهج إزاء كافة صور الاعدام وجميع عمليات التنفيذ ، لكنى لم أسمح بأية أدوات للتعذيب أو مشانق ، حيث أنها لن تؤدى إلى مشهد الدم المنسكب ، كما لم أحب الأسلحة النارية ، كالمسدسات أو البنادق ، وبقدر الامكان اخترت أسلحة بدائية وحشية ، سهام ، خناجر ، حراب ، لكى أطيل المعاناة كانت البطن هى التى ينبغى أن تطعن ، وينبغى أن تطلق الضحية التي تقدم قربانا صرخات طويلة . منتزعة ، جنائزية ، مثيرة للإشفاق ، تجعل السامع يستشعر وحشة الوجود المستعصية على الإفصاح ، عندئذ تطلق فرحتى بالحياة ، وهى تتوهج عاليا من مكان خفى فى أعماقى ، صيحة نشوتها أخيرا ، مجيبة الضحية صرخة بصرخة . أما كان هذا مماثلا تماما للنشوة التى وجدها الرجل البدائى فى الصيد ؟

ذبح سلاح خيالى الكثيرين من الجنود الاغريق ، العبيد البيض من شبه جزيرة العرب ، أمراء القبائل المتوحشة ، صبية المصاعد بالفنادق ، الندل ، فتية العصابات ، ضباط الجيش ، العاملين فى السيرك ... كنت واحدا من أولئك القناصة البرابرة الذين يقومون فى غمار جهلهم بكيفية التعبير عن حبهم بقتل

الأشخاص الذين يعشقونهم بطريق الخطأ . كنت أقبل شفاه أولئك الذين سقطوا على الأرض ، ولازالت أبدانهم تنتفض فى حشرجة الموت.

توصلت من فكرة بارعة إلى أخرى لجهاز للإعدام ، صمم بحيث أن لوحاً غليظا ثبتت به عشرات الخناجر المشرعة ، المرتبة على شكل الجسم البشرى ، تتقدم منزلقة على قضبان حتى صليب للإعدام مثبت إلى الجانب الآخر لنهاية القضبان . كان هناك مصنع للإعدام لاتنى فيه ثاقبات لاختراق الجسد البشرى عن العمل ، حيث يحلى العصير الدموى ، يعلب ، ويطرح فى الأسواق فى أغوار رأس طالب المدرسة الوسيطة الذى كنته ، كانت ضحايا لا حصر لها توثق وأياديها خلف ظهورها ، وتقتاد إلى الكوليزيوم.

تفاقمت قوة هذا الدافع تدريجيا فى أعماقى ، حتى وصلت يوما إلى حلم يقظة ، ربما كان أكثر الاحلام التى أمكن أن تراود انسانا متدنيا . هنا ، كما هو الشأن فى أحلام يقظتى ، كان الضحية مرة أخرى أحد رفاقى فى الدراسة ، سباح ماهر ، يتمتع ببنيان وثيق ، على نحو ملحوظ .

جرى الأمر فى قبو ، أقيمت مأدبة سرية ، تألقت حاملات شموع رشيقة فوق أغطية المائدة الناصعة البياض ، كانت هناك

كذلك الباقات المعتادة من القرنفل ، ثمة نثار من السكاكين والشوك وضع كل منها إلى جوار صحفة ، لكنه بدا غريبا أن المساحة الخالية في وسط المنضدة كانت كبيرة ، على نحو يتجاوز الحدود يقينا ستكون صحفة هائلة تلك التى ينبغى أن تجلب وتوضع هناك.

تساءل أحد الضيوف :

– ألم يحن الوقت ؟

كان وجهه غارقا فى الظل ، فلا يظهر للرائين ، تردد صوته الوقور كأنه صوت كهل تقدم في العمر .

الآن ، حينما أفكر في الأمر ، أتذكر أن الظلال كانت تخفى وجوه كافة شهود المأدبة ، وحدها أيديهم البيضاء كانت ممتدة للنور ، حيث راحت تتلاعب بالسكاكين والشوك فضية البريق. ثمة غمغمة لا نهاية لها حلقت فى الهواء ، تتردد كما لو كان رهط من الناس يتحدثون معا بأصوات خفيضة ، أو يحادثون أنفسهم . كانت مأدبة جنائزية ، والصوت الوحيد الذى أمكن أن يسمع فى جلاء هو القرقعة العرضية أو تحريك مقعد .

رددت قائلا :

– ينبغى أن يكون جاهزا عما قريب .

مرة أخرى تهاوى الصمت الكئيب ، كان بوسعى أن أشعر بوضوح أن الجميع مستاءون من ردى .

- أو أذهب لتفقد الأمر ؟

نهضت ، فتحت الباب المفضى إلى المطبخ ، فى أحد أركانه كان هناك درج حجرى يرقى إلى مستوى الشارع .

سألت الطباخ : أما فرغت بعد ؟

- ماذا ؟ أوه ، لحظة واحدة .

رد الطباخ ، دون أن يرفع رأسه لانهماكه فيما بين يديه ، كأنما كان بدوره معتكر المزاج ، كان يقطع نوعا ما من خضر السلاطة ، ولم يكن هناك على منضدة المطبخ إلا لوحا سميكا من الخشب ، عرضه ثلاثة أقدام ، وطوله إثنا عشر قدما على وجه التقريب .

رنت قهقهة منبعثة من بئر السلم ، رفعت ناظرى ، فرأيت طاهيا ثانيا يهبط الدرج مقتادا رفيق دراستى الشاب متين العضلات من ذراعه ، كان الفتى يرتدى سراويل فضفاضة وقميص بولو داكن الزرقة ترك صدره عاريا .

قلت له بصورة عابرة : آه ، أنه ب . أليس كذلك ؟

حينما بلغ أسفل الدرج ، وقف رابط الجأش ، دون أن